

حنان الشام

وأدرك شهرزاد الصباح...

بسم الله الرحمن الرحيم

حنان لحام

وأدركَ شهرزادَ الصباحُ..

مركز العلم والسلام للدراسات والنشر

رقم الكتاب : ٢٠

العنوان : وأدرك شهرزاد الصباح...

تأليف : حنان لحام

الطبعة : الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

موافقة الإعلام : رقم ٧٠٤٧٥

الناشر : مركز العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق - ص . ب ٣١١١١

تلفاكس ٥٤٨١٩١٩

E-mail : mman@scs-net.org

مقدمة

وأدرك شهرزاد الصباح.. فسكتت عن الكلام المباح..

فهل آن الأوان لأن تصرِّح شهرزاد بالكلام غير المباح..؟!

كـان شـهريار مفجوع القلب مجروح الكرامة.. فلجأ إلى القسوة يخفي في ثناياها انكساره..

جعل من نفسه إلهاً صغيراً على الأرض حتى كاد أن يقول: ﴿ أنا أحيي وأميت﴾.. أراد أن يمتلك شهرزاد ويصادر مشاعرها.. أن يهيمن على كل سانحة من خواطرها حتى لا تتنفس إلا بإذنه ولا تتحرك إلا بإيعازه..

وكانت شهرزاد ضعيفة.. في الظاهر فقط.. لكنها الأقوى في إدراكها ومواهبها.. وبنعومة الحرير وقوته أخذت تروي الكلام المباح.. حتى استسلم وأذعن من حيث لا يدري.. لكن شهريار على مر الأيام قد استمرأ اللعبة.. ولم يحاول أن يتحرر منها..

لم ينتبه أن اللعبة قد فات أوانها..

هل هو مصمم على تقمص دور المريض..؟!

أم أنه فعلاً ما زال مريضاً..؟ ودواء شهرزاد لم يكن إلا مسكناً أدمن على تعاطيه سنين طويلة..؟!

حقاً يا شهرزاد لقد مرت عليك أحقاب طويلة وأنت تلوكين حكايا ألف ليلة وليلة.. وشهريار متكئ على الوسائد متشبث بكبريائه وعُقَدِهِ.. يصارع إنسانيته وعواطفه السامية.. مردداً في أعماقه:

- ينبغي أن تبقى شهرزاد جارية بين يدي.. مصيرها معلق بكلمة تصدر من فمي..

حقاً يا شهرزاد لقد انتهت اللعبة.. وفشل العلاج.. ولابد من العودة للغوص في أعماق الذات.. للبحث عن معنى الأنوثة.. دورها وسر وجودها..

لابد من التصريح بالحقيقة.. ولو اعتبرها شهريار (كلاماً غير مباح)..

لقد آن الأوان لكي يقال للمريض: عليك أن تطلب الشفاء..

لقد آن الأوان لكي تخلع شهرزاد ثوب الجارية وتثبت ذاتها كإنسانة تسعى للارتقاء وتمارس دورها الأساسي في ارتقاء النوع.. وليس (حفظ النوع) فقط.

فالواقع المعاش يناقض كل الأدبيات الطنانة التي نادت بحرية المرأة، والمشكلة أعمق من أن نعدد ما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق وكرامة..

المشكلة فيك يا شهرزاد.. فأثبتي كرامتك وعظمة دورك.

زمزم

- أهلاً وسهلاً تفضلي.

دخلـــت وأنا أتأملها.. شابة سمراء هيفاء مليحة التقاطيع أنيقة الهـــندام في بســـــاطة.. من تكون هذه الفتاة..؟ إنها لا تشـــبه صديقتي - والدة صاحبة البيت - ولم أرها قبل الآن..

جـــاءتني بكأس من عصير الليمون وقالت: - دقائق وتكمل خالة منى من استعدادها للخروج معك.

- لا بأس.. شكراً لك.

ارتفع صوت طفلة من الغرفة المجاورة المفتوحة على الصالة:

- زمزم.. تعالي وانظري..

توجهت الشابة نحو الغرفة قائلة:

- جودي.. تعالي سلمي على خالة.. احتجت الطفلة:

- أريد أن ألعب على الكمبيوتر.. وكريم لا يترك لي مجالاً.

- سيعطيك كريم دوراً.. ولكن تعالي أولاً سلمي على خالة.

انصـــاعت الفـــتاة الشقراء فصافحتني ثم هرولت إلى الغرفة الأخرى:

- زمزم.. قولي لكريم إنه دوري.

زمـــزم..! من تكون زمزم هذه..؟ تبدو فتاة مهذبة وصاحبة سـلطان عـلى الأطفـال.. سؤال طرحته على صديقتي عندما حضرت.. ابتسمت وقالت:

- خمني من تكون؟؟

- هـل هـي عمة الأطفال؟ لكن ملامحها لا تمت للسوريين بصلة.

ضحكت وقالت: - إنها صومالية.. وتعمل عند ابنتي منذ ثماني سنوات..

اتسعت عيناي عجباً: - معقول؟! شغالة؟!

- بـل هـي مدبـرة لكل شؤون البيت. فابنتي كما تعلمين دكتورة ودوامها قاسٍ خارج البيت، وزمزم تقوم بكل شيء.

خرجنا إلى موعدنا وأنا ما زلت أسأل وأستفسر.. وصديقتي تخـبرني بالعجيـب من أمر تلك الفتاة.. فهي تتقن الإنجليزية وقد تعلمتها بجهدها الخاص.. فالكتاب رفيقها في المطبخ وفي سائر أنحاء المـنـزل.. تدرس مع الأطفال في النهار.. فإذا ناموا انكبت على دراسـتها الخاصـة إلى ساعة متأخرة من الليل.. لا تنام إلا قرابة ثـلاث ساعات.. وتصحو من السابعة لتحضير الأولاد وإرسالهم إلى المدرسة.

قلـت: - حقاً إنها ظاهرة فريدة.. هل تسمحين لي بالجلوس

معها عند عودتنا.. أريد سماع قصتها.

قالت: - على الرحب والسعة.

جلست أمامي وقد لفها الحياء عندما قلت لها:

- زمـــزم.. إنني معجبة بحرصك على العلم.. وأحب أن أسمع قصتك إن سمحت لي..

قالت في ابتسام وترحيب: - شكراً

- كم عمرك يا زمزم؟ - إحدى وعشرين سنة.

- حدثيني كيف جئت إلى جدة ولماذا؟

استرخت في مقعدها وشردت عيناها إلى البعيد:

- كـــان ذلك منذ عشر سنوات في ١٩٩١ وكنت أعيش في عائلـــة محترمة وميسورة في مقديشو: أبي وأمي وزوجته الثانية وأنا وعشـــرة مـــن الإخوة والأخوات ومجموعة من الخدم.. واشتعلت الحـــرب الأهلية في بلدي وانعكست على أسرتي، فقد كان أبواي مـــن قبيلتين متقاتلتين.. ما زلت أذكر.. كنا متحلقين حول طعام الغداء حين انطلق دوي الانفجارات في كل مكان.. كنت أصغر أفراد العائلة: في الحادية عشرة.. فجأة فرَّ الجميع وجدتني وحدي. وحـــين أفقـــت مـــن ذهـــولي وأسرعت أحاول الهرب.. كانت الانفجـــارات قـــد تسببت بإسقاط حجارة أغلقت علي الباب.. تسلقت إلى النافذة وقفزت إلى المرآب ثم إلى الشارع.. وهنا كان

المـــنظر مروعاً.. قتلى وجرحى قد تساقطوا هنا وهناك.. والباقي يجــري ولا يلــوي على أحد.. لم أجد سيارة أهلي.. لا بد أنهم انطلقـــوا.. ركبت دراجتي أحاول اللحاق بهم لكنني بعد ساعات يئست وفكرت أنه من الأفضل أن أعود إلى البيت.. فربما افتقدوني وعادوا إلي.. وهكذا قضيت الليلة برعب لا يوصف.. وليلة أخرى عـــلى نفس المنوال لم أذق فيها نوماً ولا طعاماً.. وأخيراً عاد أبي وهربـــنا إلى بلـــدة أخرى سيراً على الأقدام.. وبعد أشهر هدأت الأمور قليلاً فعدنا إلى بيتنا في مقديشو.. ووجدناه مسروقاً خاوياً عـــلى عروشه.. كان الناس قد أقاموا بعض المدارس الشعبية التي تـــتوقف عند الاضطرابات وقد أصبحت بالصف التاسع.. ولكن الأمن مفقود في الشوارع.. والشجار دائم في البيت.. معظم أقراني قـــد رحلوا مع أهلهم خارج الصومال لمتابعة الدراسة.. واشتد بي الضيق وبدأت أفكر بالهرب وأخطط له.. إلى أن جاء يوم تشاجر فيه والديَّ فتركَتْ أمي البيت.. وخرج أبي أيضاً.. كانَ في البيت ثلاث مربيات.. لم تفكر إحداهن بمواساتي والوقوف إلى جانبي.. إلى متى سأبقى محبوسة في هذا الشقاء محرومة من العلم.. لم أفكر ماذا سأفعل في بلد آخر وكيف أتدبر أمري.. كل ما كنت أريده أن أتابع دراستي..

وهكـــذا انطلقت في فجر اليوم التالي على دراجتي وفي جيبي

مائة دولار وجواز سفر كنت قد احتلت حتى حصلت عليه..

واستمرت زمزم تحكي لي كيف وصلت إلى الساحل.. واحتالت حتى ركبت باخرة متوجهة إلى اليمن.. وهربت هناك من التفتيش وقصدَت ابن عم لها في صنعاء.. وأخبرته قصتها فحنَّ عليها حتى حصل لها على (فيزه) للعمرة إلى جدة..

- وفي جدة اشتغلت عند أسرة سعودية لمدة شهر.. لكنني لم أنسجم معهم أبداً.. ثم أنعم الله علي بأن جمعني بالدكتورة منال فاستقر بي المقام في بيتها..

كنت قد أصبحت في الثالثة عشرة وطلبت شهادة الكفاءة من الصومال فحصلت عليها.. وبدأت رحلتي مع العلم بتعلم الإنجليزية من خالة منى.. ألاحقها كلما وجدت فراغاً..

قالت صديقتي: - لم أر في حياتي إنساناً حريصاً على التعلم مثلها.. لقد صرت أزودها بكتب دراسية بالعربية والإنجليزية.. وهي تسهر الليالي بعد أن ينام الأطفال لتدرس وتكتب الوظائف. لقد اشتغلت بتدريس الإنجليزية سبعاً وعشرين سنة فلم أرَ فتاة في مثل دأبها، لقد أصبحت الآن تقرأ كتباً فلسفية بالإنجليزية دون أن تهمل في رعاية الأطفال وإدارة المنزل بكل إخلاص. ثم أنها راسلت بعض المدارس في أمريكا.. ودرست بالمراسلة ثلاث سنوات فأرسلوا لها شهادة بالتغذية واللياقة الجسمية.. وهي الآن

تدرس لتحصل على (هاي سكول) تؤهلها للدخول إلى الجامعة في أمريكا.

- سترحلين إلى أمريكا للدراسة؟! - نعم.

- وكيف تسددين تكاليف الدراسة؟

- أشتغل بالشهادة التي أخذها وأصرف على نفسي.

- هل لك أقارب هناك..؟ - لا.

- ألا تخافين من دخول هذا العالم وحيدة..؟ ودون رجل يحميك..؟!

- لقد استطعت أن أحمي نفسي طيلة هذه السنوات.

- ألم تندمي على فرارك من أهلك؟

- حين أفكر بالأمر أجد نفسي أنني الآن أحسن حالاً بكثير.. ولو بقيت هناك لما تعلمت.. ثم أنني الآن أتصل بأهلي وأرسل لهم مساعدات مالية.. وأراهم سنوياً حيث يأتي أحدهم للحج أو العمرة.. وأساعدهم على تحقيق ذلك. لقد حماني الله وأعانني ولو لم ألتق بالدكتورة منال لما استطعت أن أواصل في تحقيق هدفي.

تأملت نضارتها ورشاقتها وقلت:

- اعذريني إن سألتك: ما الذي جعلك تتعلقين بالعلم في سن مبكرة ولم تفكري مثل سائر البنات بالزينة والزواج؟

- حزَّ في نفسي أن تسافر رفيقاتي إلى الخارج لمتابعة الدراسة

وأنـــا محـــرومة من ذلك لقد رفضت الزواج من شباب صوماليين تقدموا لخطبتي لأنني وجدهم عاديين بدون أهداف ولا آمال.

- ألم ينل إعجابك أحد حتى الآن؟

ســكتت قليلاً ثم قالت: - لقد رفضت الصداقات لأنني حتى الآن لم أجـــد من يفهم علي.. كان لي صديق بالصومال يكبرني بعـــامين، كنا متفاهمين إلى أقصى حد أمه مثقفة وراقية.. وأسرته محـــترمة وعـــلى مستوى عالٍ من العلم. كنت دائماً أحس بغصة عندما أقارن بين أسرتي وأسرته وأحسست أنني يجب أن أكون في مستواهم.. فلما نشبت الحرب الأهلية في الصومال أخذته أمه إلى مصر حيث درس في أحسن المدارس.

- وأين هو الآن؟

تنهدت قائلة: - عرفت من أهلي أنه كان قد أرسل إلي رسالة بعـــد وصـــوله إلى مصر ظللت أبحث عنه تسع سنوات.. إلى أن عرفـــت مكان إقامته الآن في بلد أوربي..وبعد جهد استطعت أن أتصـــل بـــه هاتفـــياً.. لكـــنني فوجئت أنه لم يتذكرني.. تعثرت الكـــلمات الأخـــيرة على لسانها ثم أجهشت بالبكاء.. أحسست بالذنب لأنني هيجت آلامها..

- سامحيني لقد سببت لك الألم..

قالت من بين دموعها: - لا بأس.. كنت بحاجة إلى البكاء..

- أظن أنني عرفت الآن سر طلبك للعلم منذ صغرك..

سكتت وحاولت أن تلملم دموعها.. أمسكت بيدها قائلة:

- إنها خبرة مؤلمة بلا شك.. لكنني أحس أنك قد تجاوزتها.

- نعـم. عـندما وصـلت إلى هذا الحد وعرفت أن أمه قد اكتشـفت حديـثي معـه أوقفت كل آمالي.. واتصلت بأخواته وراسلتهم.. وأظهرت الأمر على أنه تواصل طبيعي مع أناس كنت أعرفهم في بلدي.

- وبعد يا زمزم؟

قالـت بهـدوء واثق: - إنني سـعيدة بما وصلت إليه. ولولا هـروبي ـــ مع أنه كان مجازفة خطيرة ـــ لما تعلمت.. إن العالم لم ينـته عـند هذا الصديق.. وطريق العلم رائع.. وأنا مستمتعة به ومصممة عليه.

- سبحان الله.. ذكرتني بما قاله أسلافنا «تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله».

وتحدثت شهرزاد بالكلام المباح... حتى أدركها الصباح..

أين شهرزاد

- لابـــد أن تذهـــبي معـــي إلى حفلة بيت (الذهبي) غداً فقد كلفـــوني أن أدعوك وآتي بك فهم يحبون أحاديثك وخفة ظلك.. ويطربون لصوتك الندي.. لقد ألحوا في طلبك يا أم نزار..

ابتســـمت أم نزار في دلال.. ورفعت يدها تعدل فيها تسريحة شعرها.. إنها ما زالت حلوة مليئة بالنضارة.. رغم تخطيها الأربعين من العمر.

- ولكـــن أبـــا نـــزار لن يسمح لي.. ألا تعرفين تشدده في معاملتي..؟ أنت جارتي وتعرفين (البير وغطاه)..

قالـــت أم عامر بعد لحظة تفكير: - أبو نزار طيب وشهم.. اتركي الأمر علي وأن أستأذن لك منه..

- أخشى أن يصدك.. فهو (عصبي)، وإن كان يحترمك كثيراً لحرصك على البر ومعاملتك الطيبة لجيرانك..

- دعيني أكلمه ولا تحملي هماً.. هيا قومي وقولي له أنني أريد التحدث إليه..

كـــان أبـــو نزار غارقاً في مراجعة إحدى الدعاوى فهو محامٍ يـــتردد يومياً على قصر العدل وقد قضى خمساً وعشرين سنة في مهنـــته ورأى فيها العجب العجاب من المشاكل الزوجية و (كيد

النســاء) مما جعله شديداً وحذراً في معاملته لزوجته.. صحيح أنها متدينة وعفيفة.. لكنها جميلة تلفت الأنظار بحلاوة روحها وعذوبة صوتها.. وهو يغار عليها من ظلها.. وقد اكتشف أنها تكذب عليه أحـيانا.. وحين واجهها بذلك احتجت بأنه هو الذي يدفعها إلى ذلك لأنه يمنعها من الزيارات الضرورية.

فاجأته أم نزار وهي تهتف برقة: - أبا نزار..

رفع رأسه متسائلاً..

- جارتنا أم عامر تريدك في أمر..

- خيراً إن شاء الله..!! ألا ترين أني مشغول..؟

- لن تأخذ من وقتك إلا دقائق.. هل تخيب أملها..؟!

لم يملــك إلا أن يقــوم مستسلماً تحت وقع نظراتها الأخاذة وكلماتها اللطيفة.

- أهلاً وسهلاً بأم عامر.. كيف حالك وحال جارنا الكريم.. وكيف حال الأولاد؟

- الحمد لله كلنا بخير يا أبا نزار.. لا أحب أن آخذ من وقتك الــثمين كثيراً ولهذا سأدخل في الموضوع مباشرة.. لي عندك رجاء أرجو ألا تخيبني فيه.

- عــلى الرحب والسعة يا أم عامر.. نعم الجارة أنت وإنك لجديرة بأن نكون كلنا في خدمتك.

- بــارك الله فــيك يا أبا نزار.. في الحقيقة أنت تعلم حاجة النساء إلى النصح والتبصير ونحن نحاول استغلال كل فرصة للتوعية والإرشـــاد وخاصـــة في الأفراح حيث تنطلق النساء على هواهن وتـــتحلل مـــن الحشمة.. ونحن نريد أن نقدم لهن فرحاً يتم ضمن الآداب.. ونثبـــت لهن أن هناك أغان لطيفة وسامية المعنى تغني عن تلك الهابطة.

لم يكـــن أبـــو نزار مرتاحاً لهذه المقدمة.. لكنه كان يستمع مجاملاً..

- المهـــم يا أبا نزار أن عائلة (الذهبي) قد أبدوا رغبتهم الحارة في أن تحضـــر أم نـــزار فرحهم غداً لكي تقدم للصبايا بديلاً طيباً بصوتها الجميل ونصائحها اللطيفة.. وأنت رجل طيب ولن تبخل علينا بذلك..

سكت أبو نزار محرجاً فتابعت أم عامر:

- إنها بضع ساعات فقط.. وأعدك أننا لن نتأخر..

قال أبو نزار: - مشكلتي مع أم نزار أنها لا تفي بوعدها..

احتجت أم نزار: - أنا..؟! سامحك الله..

- نعـــم أنت.. منذ أسبوع استأذنت في الذهاب لزيارة أهلك ساعة في العصر ولم تعودي إلا بعد صلاة العشاء.

- قلت لك يومها أنني التقيت بأخواتي هناك وشغلنا الحديث.

- لكنك لم تقولي أنك زرت جيران أهلك ولولا أن ابنتك زل لسانها بالحديث عن الجلسة الجميلة حول البركة في صحن دار الجيران..

قاطعته أم نزار وقد احمر وجهها: - وماذا في الأمر لو دخلنا لزيارة جيران أهلي..؟

- ليس في الأمر شيء سوى أنني فقدت الثقة في كلامك..

كانت أم عامر تستمع إلى الحديث مستاءة.. ثم تدخلت بلباقة:

- عندك حق يا أبا نزار وكل ما قلته صحيح.. وإن أهم عنصر في الحياة الزوجية هو الثقة.. ومعظم المشاكل تنبع من فقدانها.. لكنني أعدك يا أبا نزار أننا لن نتأخر.

- أحب أن أعرف موعد عودتها إلى البيت.

- لن ننتظر حتى نهاية الحفلة.. وسنعود في الحادية عشرة.

- حسناً يا أم عامر إنني أحترم رغبتك ووعدك.

مضى كل شيء على ما يرام.. وكانت أم نزار نجمة الحفل بغنائها وكلامها (المهضوم)..

نظرت أم عامر إلى ساعتها وقالت:

- الساعة الآن العاشرة والنصف.. ولا بد من الانصراف الآن يا أم نزار..

لاحظتْ أم العروس حركتهما استعداداً للانصراف.. فأقبلت عليهما تستفسر وتحلف الإيمان.. قالت أم عامر: - اعذرينا يا أختي فقد انتهى وقتنا..

- وهل للأفراح توقيت..؟! لم نرتوِ بعد من صوت أم نزار.. لن أدعكما تذهبان..

قالت أم عامر بحزم: - لا أستطيع أرجوك..لا بد أن نكون في الحادية عشرة في البيت..

- في الحادية عشرة سيأتي ابني مع (زفة العريس) ومعه سيارة وسأطلب منه أن يوصلكما.. ولن يأخذ الوقت أكثر من خمس دقائق.. أليس هذا أفضل من انتظار سيارة أجرة..؟

- ولكن لنفرض أن ابنك تأخر..؟

- لن يتأخر يا أم عامر.. لن يتأخر..

لكن الرجل تأخر حتى الثانية عشرة.. وكانت (العراضة) في أوجها عندما خرجت المرأتان من الصالة.. وأم عامر مضطربة أشد الاضطراب: - لقد أخلفنا بالوعد بعد أن وثق بنا أبو نزار..

قالت أم نزار تهدئها: - لا عليك سأعتذر منه وأبين له كيف خرج الأمر من يدنا..

- أرجوك يا أم نزار اعتذري لي منه بحرارة وسآتي غداً خصيصاً لاعتذر منه لأن الوقت قد تأخر الآن..

- لا تحملي هماً يا أم عامر سأتدبر الأمر..

نظرت إليها أم عامر مستغربة هدوءها وثقتها بنفسها..

- هيا أدخلي بيتك ولا تحملي هماً.. السلام عليكِ..

أسرعت أم نزار بارتقاء درجات السلم محاولة إخفاء وقع أقدامها بقدر الإمكان.. وهي تقول في نفسها: ما هذا الحظ العاثر.. سيبقى أبو نزار ينغص علي فرحتي..؟ إنه يدفعني إلى الاحتيال عليه.. وأنت أرحم يا رب من أن تحاسبني على ذلك.. كم أتمنى أن أتحرر من هذا التضييق دون أن ألجأ إلى اللف والدوران.. أنا أحب الناس والأفراح وهو يريد أن يحبسني في قمقم.. ما العمل..؟ إنه نصيبي..

أدارت المفتاح في قفل الباب بهدوء بالغ ودخلت دون أن يسمع لها حفيف وقد دبرت في ذهنها مخرجاً.

كان أبو نزار جالساً في مكتبه يقرأ كتاباً ويختلس النظر إلى الساعة بين فترة وأخرى.. أصبح الجميع في البيت نائمين وعقرب الساعة قد جاوز الثانية عشرة.. ماذا أفعل بهذه المرأة؟ أتمنى أن أراها تفي بوعدها ولو مرة واحدة قبل أن أموت.. ولكن لن أسمح للغضب أن يسيطر علي ويرفع ضغطي.. أوصاني الطبيب بالاسترخاء..

استرخى على الأريكة وأسند الكتاب على صدره ومضى في

قراءته.

صوت رحيم ينتشله من الأعماق.. وتواصلت الترتيلة وقوي صداها في أذنيه: يا أرحم الراحمين ارحمنا.. يا إلهي.. أين أنا..؟ قام يشد أطرافه المتيبسة.. يا لها من (نومة) تُقطِّع الأوصال.. لماذا أنا هنا..؟ مع أذان الفجر استعاد وعيه.. لقد كان يقرأ على الأريكة منتظراً عودة زوجته من العرس.. فنام حتى الفجر.. ولكن أين زوجتي؟ لماذا تركتني على الأريكة؟ توجه إلى غرفة النوم فلم يجد أحداً.. ألم تأت حتى الآن؟! دخل إلى غرفة نزار فأيقظه:

- نزار.. أمك أين..؟ فتح عينيه بصعوبة وقال: - لا أدري..

- هل عادت من العرس أمس؟ جلس نزار مدهوشاً: - الحقيقة أنا نمت قبل أن تعود.. لعلها تتوضأ..

قال أبو نزار بتوتر: - لا أحد في الحمام.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا حصل لها..؟

كان نزار ينظر ببلاهة إلى أبيه.. صرخ به أبوه:

- قم.. ألم تصحُ من نومك بعد؟ أمك لم ترجع حتى الآن.. وعلينا أن نبحث عنها..

وقف نزار مرتاعاً: - وكيف نبحث عنها..؟

- ننزل إلى الشارع.. نذهب إلى المخفر..فلعل حادثاً مروعاً قد حصل لا سمح الله.. لطفك يا رب..

- أهدأ يا أبي أرجوك.. سأنزل مباشرة..

هم نزار بالخروج من الباب فهتف به أبوه: - نزار.. انتظر يا نزار.. أليس من الأفضل أن نسأل جارتنا أم عامر..؟

نظر نزار إلى أبيه بتردد: - أنقرع باهم في هذا الوقت..؟

- جارنا يقوم لصلاة الفجر.. ولا حرج في قرع باهم..

ما زال نزار متردداً.. فكر أبو نزار قليلاً ثم قال:

- الأفضل من ذلك أن نخرج لصلاة الفجر في المسجد.. فربما نلتقي به في الطريق أو في المسجد.

لم يعــرف أبو نزار كيف توضأ.. وما أسرع ما كان ينــزل درجــات السلم وقلبه يرتجف توجساً.. تريث أمام بيت جاره أبي عامر.. والتفت إلى نزار محتاراً:

- هل نقرع الباب..؟

سكت الاثنان في لحظة تفكير.. ارتفع وسط السكون صوت وقع أقدام في بيت أبي عامر..

استبشــر أبــو نــزار: - لا بــد أن جارنا خارج للصلاة.. سأنتظره.

استند أبو نزار إلى جدار السلم وهو يحاول أن يسترد أنفاسه وتماســكه.. مرت دقائق كأنها سنوات.. وأبو نزار يضرب أخماساً بأسداس.. وخرج أبو عامر أخيراً من داره فبادره أبو نزار:- أسعد

الله صباحك يا جار..

رد الرجل مدهوشاً من المفاجأة: - أهلاً أهلاً بجار الرضى..

قال أبو نزار متلعثماً: - عفواً يا أبا عامر.. هل عادت جارتنا من العرس بالأمس..؟

فـــتح الجـــار عينيه أكثر محملقاً بأبي نزار: - نعم..؟! بالطبع عادت..

- أرجوك يا أبا عامر اسألها عن أم نزار.. هل عادت معها..؟ وأين هي..؟

- ألم تعد أم نزار حتى الآن..؟! معقول..؟!

- أرجوك يا أخي اسألها..

عاد الرجل ففتح الباب ونادى: - أم عامر.. يا أم عامر..

غاب في الداخل برهة ثم عاد قائلاً: - لقد عادت أم نزار معها بالأمس..

قال أبو نزار بلهفة: - لكنها لم تصل إلى البيت..!!

ارتفـــع صوت أم عامر من خلف الباب: - أهلاً بجارنا.. لقد عدنا معاً بالأمس..

- متى كان ذلك..؟

- آسفة جداً يا أبا نزار لقد حصل ظرف طارئ وتأخرنا حتى الثانية عشرة والنصف..

- لكنني كنت يقظاً في ذلك الوقت.. وأم نزار لم تأت..!!

- عجيب لقد دخلت إلى البيت وكانت هي تصعد السلم إلى بيتها..!!

ســكت أبو نزار وقد أخذت الوساوس تتقاذفه.. هل وقعت مــن على السلم وحصل لها حادث..؟ أم خطفها (ابن حرام) في بهيمة الليل..؟ أم شردت..؟

خرجــت أم عامر في ثياب الصلاة قائلة: - غير معقول.. هل بحثتم عنها في البيت جيداً؟

لم تنــتظر لسـؤالها جوابــاً وأسرعت ترتقي درجات السلم وأســرع الجمـيع خلفهــا.. دارت أم عامر في أنحاء البيت حتى وصلت إلى غرفة الجلوس النائية.. هتفت حين فتحت الباب:

- إنها هنا..

أطــل نــزار وأبــوه من الباب فوجدا أم نزار مستلقية على (الديوان) تغط في نوم عميق..

نامت شهرزاد حتى الصباح

وقد خلطت القبيح بالمباح..!!

آب ٢٠٠١م

حمّالة الحطب

- سوسن.. ألم تنهي زينتك بعد؟

- لحظة يا عزيز.. لحظة واحدة فقط..

ما زالت تقلب النظر في المرآة.. أي عقد يناسب الثوب أكثر..؟وتجدد اللمسات الأخيرة في (مكياجها) وتسريحة شعرها.. أوه.. كدت أنسى العطر.. أخيراً خرجت إلى الصالة حيث ينتظرها زوجها عزيز.

- ما رأيك..؟

وقف عزيز يتأملها وقد انكمش ثوبها الضيق على أجزاء جسدها وانحسر عن ذراعيها وركبتيها.. والمكياج و(الإكسسوار) والتسريحة.. كل ذلك يجعلها فتنة للناظرين.

- رائعة كعادتك يا حبيبتي..

صحيح أن مظهرها هذا يكلفه الكثير.. لكنها دائماً محط الأنظار.. وهو في الحقيقة حائر بين غيرته عليها.. وزهوه بها..

خرج شهريار متأبطاً ذراع شهرزاد.. مزهواً بأنه يمتلك أبهى جارية في العالم.. قاصداً سهرة في بيت أحد أصدقائه.. فتح عزيز باب السيارة لزوجته.. كان النسيم الناعم يعابث شعرها الحريري

فـيزيدها فتـنة.. وقـد انحسـر الثوب أكثر وأكثر أثناء ركوبها وجلوسها في السيارة.. الشباب في الشارع يحملقون ويتحسرون.. وهي تبتسم مزهوة بفتنتها..

في بيت الصديق كانت محط الأنظار من الرجال والنساء..

قلوب النساء احترقت كمداً.. وقلوب الرجال احترقت بنار الحسد والشهوة.. وزوجها تتقاذفه ألسنة اللهب.. بين نار الغيرة.. ودخان التباهي الذي يعمي البصر. ثم انتحى النساء جانباً يتجاذبن أحاديـثهن (الحريمية).. قالت إحداهن بشيء من الحرج وقد بدا ثوبها متواضعاً أمام ثوب سوسن:

- الحـياة صـعبة.. وعلينا أن نخفف من صرفنا على الملابس والزينة.. ورجالنا يكدحون ويستحقون بعض الرحمة..

ردت الثانـية باستنكار: - الرحمة..؟! أية رحمة تعنين..؟! إننا نعيش عمراً واحداً.. ومن حقنا أن نلبس ونستمتع..

قالت الثالثة: - بل هم يريدون منا أن نكون في أجمل صورة..

شمخت سوسن بأنفها وقالت للأولى:

- أنـت (درويشـة وعلى نياتك) تقنعين بمظهر متواضع ولا تدريـن مـاذا يفعل زوجك.. لقد كاد يأكلني بنظراته.. انتبهي لنفسك يا مسكينة.

احمـر وجه المرأة وسكتت على مضض تحاول ابتلاع ما لحق

بها من هوان.. لكنها طوت صدرها على حساب عسير لا بد أن تصفيه الليلة مع ذلك الخائن..

- دعونا من الرجال (وغمهم) وحدثونا بما يسرُّ..

قامت صاحبة البيت قائلة: سآتيكم ببعض المكسرات فالكلام لا يحلو إلا مع (طقطقة البزر)..

خفضت سوسن صوتها قائلة بعد ذهاب صاحبة البيت:

- الحمـــد لله.. تذكرتْ أخيراً أنْ تتحفنا بمكسراتها..! البخيل لابد أن يفضح نفسه.

علا صوت ضحكاتهن.. قالت إحداهن:

- حـــرام عليك.. لقد قدمت لنا الشراب والقهوة.. ولم يأت وقت المكسرات بعد..!

نظرت سوسن إليها باستنكار: - حرام علي..؟! ليتها تستحق منك هذا الدفاع..

دهشت المرأة.. فتابعت سوسن: - لو تسمعين ما قالت عنك بعد انصرافك في السهرة الماضية..

- وماذا قالت عني؟

- مع أني لا أحب نقل الكلام.. لكن يجب أن تعلمي ما قالت عنك حتى لا تخدعي بها..

- قولي بالله عليك ماذا قالت..؟

- قالـــت إن ثوبك غير لائق وخفيف وقد اشتريتِه من سوق الملابس المستعملة.. وتقولين للناس إنه من باريس..

- ماذا؟! الويل لهذه الثرثارة مني..

*** *** ***

وعادت شهرزاد إلى البيت وقد قرت عيناً بنصيبها الوافر من إشعال النيران في كل مكان حلت فيه..

إنهـــا لم تؤهَّـــل.. ولم تؤهِّـــل نفسها إلا لأن تكون (حمالة حطب).

لوحة وضيئة

- لبنى.. انتبهي لإخوتك ريثما أحضر الطعام..

سحبت لبنى أخويها وأختها : - تعالوا سنحكي حكاية.

- بنان اغسلي الخضار ريثما أجهز القدر والزيت.

كانت أم ياسر مرهقة تحاول تحضير كل ما تحتاج إليه في المطبخ بعد أن نظفت البيت وجمعت الملابس المتسخة وحركت الغسالة..

آه.. (العمر بيخلص والشغل ما بيخلص).. كان ينبغي أن تكون لدي شغالة.. ولكن لم أجد حتى الآن واحدة تفهم علي.. ماذا أفعل يا رب كل الشغالات اللواتي جربتهن أتعبنني.. واحدة لا تعرف كيف تنظف.. والثانية كادت تعلم الأطفال كلماتها القبيحة.. والثالثة تكذب وتتظاهر بالعمل.. كم كنت أتمنى أن يبقى لدي وقت للقراءة.. ولكن البيت والأولاد يستهلكون العمر والجسم والأعصاب.. ولولا أن أبا ياسر يحدثني عن كل ما يقرأ لكنت خاوية الفكر والنفس..

وضعت أم ياسر قارورة الزيت على الطاولة.. والتفتت إلى القدر تغسلها وتجففها.. كان علاء الصغير قد تسلل إلى المطبخ

حافياً مدفوعاً بفضوله.. وصل إلى الطاولة فاستهواه بريق الزيت في القارورة.. سحب القارورة وفتح غطاءها.. وفي لمح البصر اندلق الزيت على الأرض.. التفتت أم ياسر فرأت منظراً عجباً.. علاء يمسك بالقارورة وينظر إلى الزيت مدهوشاً.. أسرعت صارخة:

ماذا فعلت أيها الشقي؟ واختلط صراخ الأم بصراخ الطفل الذي نال (علقة) ساخنة من أمه التي قضت ساعة بعد ذلك في محاولة لإصلاح ما أفسد.

عاد أبو ياسر من عمله فوجد زوجته في حالة يرثى لها من التعب والتوتر.. فأقبل عليها ملاطفاً مذكراً بأجر الله في الآخرة عارضاً عليها كل ما يقدر عليه من مساعدة..

استعادت أم ياسر تماسكها على وقع كلماته الحنونة..

- يا أم ياسر.. تعلمين أنني لا أهتم بتزويق الطعام.. ليتك لم تحاولي الطبخ طالما أن لديك أعمالاً كثيرة.. ألم تسمعي قول أحدهم: من كان همه ما يدخل في بطنه فقيمته تعدل ما يخرج منها؟..

ضحكت أم ياسر ثم قالت: - والله إنني أحزن من أجلك.. تأتي متعباً من التدريس في الجامعة.. وأحب أن أتحفك بلقمة طيبة..

- سلّمك الله يا أم ياسر.. أنا آتيك بلقمة طيبة من السوق.

- لا والله لا تخرج في هذا الحر.. لقد طلبت من لبنى أن تحضر طـبقاً سريعاً من المكرونة وسنتدبر أمرنا. ولكن الذي يؤلمني أكثر أنني ضربت الصبي و لم أتمالك أعصابي.. تصور يا أبا ياسر منظره و هو يراقب الزيت يتدفق .. لقد كان مبهوراً وكأنه أرخميدس..!

ضحك الاثنان طويلاً..

- أتعـرفين يا أم ياسر.. كثيراً ما أحس بأن الأطفال في عالمنا محـرومون من نشاطات كثيرة.. وأشعر بالذنب مع الأولاد.. ما رأيك بنـزهة إلى شاطئ البحر..؟

- اليوم..؟

- أجـل.. نخرج بعد العصر.. وليلعب الأولاد بالرمل والماء كما يشاؤون.

زقـزق الأولاد فـرحاً عندما جاءهم النداء.. وبسرعة البرق أصبحوا جاهزين..

- أين كتاب شروط النهضة يا أم ياسر..؟ لا بد أن يرافقنا.

أسرعت أم ياسر تلتقطه من المطبخ.. ضحك أبو ياسر قائلاً:

- لم أكن أعلم أن فيه تعليمات للطبخ..

ابتسمت أم ياسر:

- ليتنا نتعلم يا زوجي العزيز كيف نطبخ الحضارة.

- بسـيطة.. ضـعي بضـعة كتب لمالك بن نبي في الخلاط

وأضيفي إليهم بعض الأبحاث التاريخية.. شغلي الخلاط.. ثم تناولي من المزيج ملعقة كل ساعة..

تزاحموا في السيارة لغط محبب..

- بابا.. دعني أسوق السيارة بدلاً عنك..

ابتسم الأب:

- سأعلمك يا ياسر كيف تسوق عندما تكبر وتطول يداك ورجلاك حتى تستطيع الوصول إلى الدواسات والمكابح.. وعندها أرتاح أنا وتسوق أنت.

اتخذوا مجلسهم على الشاطئ في أهدأ منطقة منه.. وانفرط عقد الأطفال يعبثون ويبنون قصوراً من رمال.. والنسمات العليلة تحمل إليهم بعض رذاذ الموج فتزيدهم بهجة وانتعاشاً.

صبت أم ياسر القهوة وناولت زوجها فنجاناً.. واسترخت مع فنجانها بسعادة وهي تستمع إلى زوجها يقرأ ثم يعلق ويناقش.. هل في الدنيا مثلك يا أبا ياسر؟! لك الحمد يا رب إذ أنعمت عليَّ به..

- أين وصلت يا أم ياسر..؟ لماذا لا تناقشيني..؟ كأنك شردت عني.. إن شئتِ أوقفت القراءة وبحثنا في أي موضوع تحبين..

-بالعكس يا أبا ياسر.. إنني سعيدة جداً بما تقدم إلي من

أفكـــار.. فكم أتحسر لضيق وقتي عن القراءة.. وأقول في نفسي.. لـــولا أن مـــنّ الله علي بك لكنت امرأة من عالم الحريم.. محدودة الفكر لا تشهد الأحداث ولا تتقن إلا التنظيف والطهي.

ابتسم أبو ياسر وقال:

- لا تقطعـــي عنقي بالغرور.. أنسيت توجيه النبي صلى الله علـــيه وســـلم للذي مدح صاحبه..؟ صحيح أنني أستحق المدح ولكن..

ضـــحك الاثنان ثم قالت: - سلّمك الله يا أبا ياسر لي .. إنني أتحـــدث بما أنعم الله علي. هل في الدنيا رجل مثلك يحدث زوجته يومياً عن آخر ما قرأ ويحاورها ويأخذ رأيها..؟

- قـــال: ولكـــنني أستفيد كثيراً من ذلك.. فالفكرة في ذهني تصبح أقوى عندما أتحدث عنها.. والحوار معك كثيراً ما نبهني إلى جوانـــب أخـــرى لم أنتبه إليها.. صدقيني يا أم ياسر إنك أحياناً تلفتين نظري إلى (الرأي الآخر) الذي لم أفكر فيه.

ارتفعـــت صـــيحة من الأولاد:بابا..علاء سحبته الموجة إلى البحر..

صرخت أم ياسر وهي ترى علاء يتخبط وسط الماء.. قفز أبو ياسر بلمح البصر إلى الماء.. وخلال لحظات عاد به رافعاً إياه من رجليه.. والطفل يسعل ويخرج الماء من فمه.. تلقفته أم ياسر باكية

مرتجفة.. وهو يصرخ ويُعوِل حتى هدأ في حضن أمه..

جلس أبو ياسر وثيابه تقطر ماءً يردد:

- الحمد لله على سلامته.. لقد غفلنا عنه فتولته رعاية الله.

قالت أم ياسر من بين دموعها:

- حفظك الله لنا يا أبا ياسر.. ماذا كنت أصنع بدونك؟ سنقدم صدقة شكراً لله على إنقاذه.

- ضحك أبو ياسر وقال: الأفكار لا تنفع على البحر، ولابد من الأعمال.. علاء تعال إلي..

- ماذا ستفعل؟

- سأعلمه السباحة..

- لكنه مرعوب الآن ولن يستجيب..

- دعيني أحاول حتى لا يترسخ الخوف في ذهنه من الماء والسباحة.

حمل شهريار ولده وانطلق يؤدي دوره مع أولاده.. وقلب شهرزاده مليء بالحب والعرفان.

غربة

نظـــر في ســـاعته ثم التفـــت إلى الإشارة الضوئية.. مازالت حمراء.. تمتم متذمراً:

كل شيء يدعو للملل.

أمامـــه يقبع عدد من السيارات .. وخلفه قطار متناسق منظم منها.

أضاء اللون الأخضر فانساب الجميع بدقة ورتابة.

الشـــارع النظيف يمتد كنهر عريض لامع السطح.. والأبنية الفارهـــة عـــلى الجانبين تفغر أفواهها لتبتلع الناس ثم تلفظهم من جديد.. ما جدوى هذا الدخول والخروج..؟

وفيم الغدو والرواح..؟

خيل إليه أنه لا يرى إلا سكوناً مطبقاً مملاً..

ضـــغط على زر المكيف فقد أحس أن النسمات اللطيفة في الظهيرة قد أصبحت خانقة..

المذيـــع يرطن بآخر أخبار ضربات أمريكا للعراق.. وحلف الناتو لبلغراد..

أخرس المذياع مع سيل من الشتائم. وضغط على زر المسجلة فانطلقـــت منها أغاني صاخبة.. تباً لهذه الموسيقى التي تقرع الرأس

وكأنها مصممة على كسره..

أين مني نغمات (الميجانا) وفيروز وألحان بلادي التي تنساب إلى النفس كشلال لطيف ناعم..؟ بحث عن شريط أغاني فيروز.. أوه.. لابد أنه نسيه اليوم في البيت.

أصـــبحت مشاعره كالموج المتلاطم.. وفوران بركان يتفجر في الأعماق..

ما هذه الكربة التي فرضتها علي الغربة؟! كل شيء بلا معنى ولا طعم ولا رائحة..

خرجت من بلدي فراراً من (خدمة العلم) ولن أستطيع العودة إلا بعد سنين طويلة.. كنت مخدوعاً ببريق الحضارة وفرص العمل وكسب المال.. لكنني فقدت أهلي ووطني.. ألقيت بنفسي وسط آلـــة تدور بلا قلب ولا رحمة لتطحن كل شيء.. ففقدت روحي وكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار.. الناس هنا يفرون من غول المادة ورتابة العمل إلى الليالي الحمراء في البارات والمواخير.. لكنني لست منهم ولا يمكن أن أكون مثلهم..

كاد يرتطم بالسيارة التي أمامه فقد توقفت عند الإشارة وهو شـــارد.. وبدأ سائقها يوجه إليه إشارات الاستنكار بيديه.. تململ في مقعده محرجاً..

مـــازال بيـــته بعـــيداً.. فالمدن هنا كبيرة والمسافات طويلة..

ولعلهم اخترعوا ذلك قصداً كي يتخلصوا من بعض الوقت الذي يمضي ثقيلاً هاهنا..

تـــرى مـــاذا تفعل زوجتي الآن..؟! هل مازالت غاضبة؟ لقد وجهـــت إليها كلمات نابية بالأمس كعادتي.. نظرت إليّ محمرة الوجه.. فأشحت عنها متجاهلاً.. فانسحبت إلى غرفتها..

لقـــد هممت أن أذهب إليها وأصالحها.. لكن كبريائي أبت عـــليّ ذلك.. من هي حتى أعتذر منها..؟ الرجل لا يعتذر وعلى المـــرأة أن تتحمل وترضى.. ولعلها قد تعودت على ذلك و لم تعد تؤثر فيها كلماتي..

انطلقـــت السيارات من جديد.. ومازالت خواطره تتلاطم.. لشـــد ما تألمت من أجلك يا زوجتي لكنني لن أبوح لك بذلك.. ولن أسمح لك أن تمسكي بزمامي..

بـــدأ يســـتعيد الذكرى.. كيف خطبها له أهله وأرسلوا له صـــورها.. فتاة حلوة في ربيعها العشرين جمالها من صميم بلاده.. عيون حوراء ووجه لطيف جذاب يحيط به خمار فيشع عليه طهراً ووقـــاراً.. تردد قليلاً في الموافقة.. كيف يتزوج من لا يعرفها ولا تعـــرفه؟! لكنه لن يتزوج من أجنبية أبداً.. وهو محتاج إلى الزواج والإحصـــان في هذه الغربة.. وبدا له أنه لا يملك خياراً آخر وما أســـرع مـــا تم كل شيء عن بعد.. وجاء بها أهله وأهلها إليه..

ودخـــل الغريـــبان إلى مخـــدع الزوجية.. وانقضى شهر العسل والمجاملات.. وإذا به أمام طفلة جياشة العواطف.. تحب أن تنطلق كالفراشة.. ولكننا في مجتمع غريب لا أمان فيه على المرأة.. فأين تخـــرجين..؟! سألته أن تتابع دراستها في الجامعة فرفض.. إنه لا يســـتطيع أن يـــرافقها فكـــيف يأمن عليها..؟ بكت واستعطفت وقالت أنها تشعر بالفراغ والملل والحنين إلى أهلها وبلدها.. وماذا في ذلك..؟! وأنا أعاني من ذلك وأتحمل..!! ثم أنه سايرها وتركها تنتســـب لـــدورات في اللغة الأجنبية في مركز قريب من البيت.. والحمـــد لله أنها شغلت بعد ذلك بالحمل ورزقا بطفلهما عامر .. كان عامر حدثاً جديداً خرق جدار الملل وأدخل بعض الفرح إلى حـــياتهما الباهتة.. وانقضت الأيام وأصبح عامر يمشي ويتكلم.. وعـــادت هـــي تطالب بالخروج للدراسة فهو مشغول عنها بعمله وإحساســـها بالغـــربة مريـــر.. كانت تقول: لقد تركت أهلي ودراســـتي وبلـــدي وصديقاتي لأعيش مع زوج يشاركني آمالي وأحلامـــي.. لنتعاون على الغربة حتى يأذن الله بالعودة إلى الأهل والوطـــن.. لكـــنك تـــأبى عليَّ أن أكون شريكة.. تأبى عليَّ أن أعـــيش.. تـــأبى عـــليَّ أن أتعلم.. ماذا أنا بالنسبة لك..؟! ولماذا تزوجتني..؟!

تباً للقصص والأفلام الرومانسية كم أفسدت عقول النساء..

أميطي عنك هذه الأحلام ولا تتجاوزي حدودك معي.. كان دائماً يواجهها بالتعنيف والاستهزاء.. ماذا تريد منه..؟! ألا يكفي أنه يتحملها وينفق عليها؟! ولماذا يتركها تواصل تعليمها..؟ لتتعالى عليه وتزعم أن لها حقاً في اتخاذ القرارات؟! لقد دفعته بأحاديثها هذه إلى أن يغلظ لها في الكلام..

لطمها مرة وهددها بالطلاق مراراً.. وكانت تبهت أمام ثورته وإهاناته وتنزوي في غرفتها باكية.. ويجري عامر وراءها.. مرعوباً منه إلى حضنها.. كم كان يؤلمه ذلك.. حتى لقد وقف أمام المرآة مرة يتفحص نفسه.. هل أنا مخيف إلى هذا الحد؟!

ومنذ أسبوع بدأت تسمعه نغماً جديداً.. أريد السفر إلى أهلي.. لقد اشتقت إليهم أرجوك احجز لي.. نظر إليها محتداً.. تريد أن تزور أهلها وبلدها وتتركني وأنا محبوس هنا في غربتي..!! وتأخذ معها عامر..! فماذا يبقى لي هنا؟!

أراد أن يقول لها: إني بحاجة إليك وإلى عامر.. لا أستطيع فراقكما.. لا أستطيع احتمال الغربة بدونكما.. لكن كبرياءه خذلته.. فزجرها وأسمعها من الكلام ما لا تستحق.. لكنها عادت إلى موضوع السفر بالأمس فصاح بها: اذهبي إلى الجحيم أنت وأهلك..

نظرت إليه بعين دامعة ووجه محمر.. فأشاح عنها..

فانسحبت إلى غرفتها..

حقاً لقد كان قاسياً وبذيئاً... لكنها ستنشغل بابنها وتنسى.. فـالأم تنسى نفسها مع أولادها.. على كل حال سيحاول ألا يتشاجر معها بعد الآن.. ولعله إن وجد الظرف مناسباً اليوم أن يصطحبها وابنها في نزهة..

أخيراً وصلتُ.. تنهد بارتياح وهو يعدل وضع سيارته أمام باب البيت..

لابد أن عامراً الآن يجري إلى الباب بعد أن سمع صوت السيارة ليستقبله بسيل من الترحيب والأسئلة والثرثرة المحببة.. قرع الجرس بيد وأدار المفتاح في الباب باليد الأخرى.. دفعه ودخل.. عامر.. أين أنت؟

البيت في صمت مطبق.. لا شك أنه نائم.. وأمه أين هي؟! ربما مازالت معتصمة بغرفتها تطمع في أن يصالحها.. لكنه لن يفعل.. ستتعود على الدلال وتصبح صعبة المراس.. دخل إلى المطبخ يبحث عن شيء يؤكل.. لم تحضِّر طعاماً أيضاً!! يا لسوء أخلاقها..!!

عاد أدراجه نحو غرفة عامر.. فتح الباب بهدوء.. لكنه ليس في فراشه!! أين ألعابه التي كان يرتبها حول السرير وعلى طاولته الصغيرة..؟!

وقف يتساءل مدهوشاً وقد لمع في ذهنه خاطر غريب.. أسرع إلى غـــرفة زوجـــته.. فلم يجد أحداً.. فتح أبواب الخزانة فإذا هي خاوية على عروشها..

أصبح الصمت المطبق قاتلاً.. تلفت حوله وقلبه يكاد يسقط بين قدميه..

وقعـــت عيـــناه على ورقة موضوعة على التسريحة.. تلقفها مسرعاً وقرأ:

(هـــا أنا أريحك من وجودي إلى الأبد.. ففي الوقت الذي تقـــرأ فيه كلماتي أكون أنا محلقة فيه إلى بلدي.. كنت تظن أنني ضـــعيفة مفتقرة إليك.. لا أجرؤ على الفكاك من سجنك.. لكنني صبرت وتحملت من أجل عامر.. فلما قطعت الشعرة الأخيرة التي تـــربط بينـــنا.. أيقنـــت أنك لا تريد أن تصدق أن لعبة شهرزاد وشهريار قد فات أوانها.. ولم يعد أمامي من سبيل إلا أن أحرمك مـــن أوهـــامك.. وأبعد عنك عامر حتى لا يصاب بالعدوى من أمراضـــك.. ابحث لك عن جارية تشتريها لتخدمك وترضى أن تكون غبار أقدامك..)

تهـــاوى عـــلى الأريكة لاهثاً.. وسقطت الورقة من يده وهو يحـــدق في صـــورة الزفاف التي مازالت معلقة أمامه.. هو يبتسم بـــتحفظ ويتصنع الوقار.. وهي بفستانها الأبيض الملائكي وشعرها

الفاحم وعينيها الكحلاوين البريئتين وبسمتها الجذلى التي ضاعت منذ سنين..

أصبح الصمت المطبق لا يطاق.. فصرخ من أعماقه:

تـــباً لي لقد خسرت الشخص الوحيد الذي كنت أصب عليه أحمالي.. ويتحملني بصمت...

أيار ١٩٩٩م

هل أقول: لا ؟

قالت بسخرية مريرة:

لقـــد أصبحت مقتنعة بأنني سبب كل ما يحدث في ا العالم من مشاكل..

التمعـــت في عيـــنها دمعـــة وأشاحت بوجهها عن جارتها وتشاغلت بأعمالها..

اقتربت منها جارتها أم سمير قائلة:

هوني عليك يا أم كمال.. هكذا الحياة تعب وبلاء.

أمسكت بيدها وسحبتها: تعالي نحتسي القهوة في شرفة بيتي.

لكن الأعمال لا ترحم..

(العمر بيخلص والشغل ما بيخلص) تعالي نرتاح دقائق..

كانت الشرفة بهيجة رغم صغرها وبساطة شكلها.. فأم سمير مولعـــة بأصـــص النـــبات قد صفتها على الأطراف ونسقتها.. فالياسمينة تنتصب كفتاة كاعب استندت إلى الحائط بثوبها الأخضر النضر المطرز بزهرات الياسمين.. ابتسمت أم كمال وقالت منتشية:

الله.. مـــا أحلى عبيرها.. إنها عروس تستقبل الأصيل بكل ما لديها من فتنة..

أتـــرين يا أم كمال.. هذه النباتات هنَّ أعز أصحابي.. أفزع

إليهن كلما ضاق صدري. بدأ الرضى يشرق في قسمات وجهها حتى عاد إليه بهاؤه واتقدت جاذبيته..

قالت مداعبة: ما هذا الجمال يا أم كمال..؟ هنيئاً لجارنا..!!

عادت سحابة الحزن لتظلل أطراف الوجه الأسمر اللطيف.

جـــارك يندب حظه صباح مساء.. لقد اكتشف بعد عشرين عاماً من حياتنا الزوجية أنه مغبون وسيئ الحظ..

مـــا هذا الكلام يا أم كمال..؟ بعد عشرين عاماً وقد أصبح أولادكم شباباً يقول هذا؟!

التقطت أم كمال دموعها وزفرت زفرات حرى..

لا بـــأس عليك يا أم كمال فالبكاء يريح القلب ويجلو الهم.. حدثيني يا حبيبتي وأخرجي كل ما يثقل صدرك من غم فأنا أختك وأتمنى أن أعينك وأحمل عنك.

لملمت أم كمال شعث أنفاسها ومسحت دموعها .. وبدأت تسكب بعض معاناتها:

مـــنذ عشرين عاماً التقينا وجمعنا إعجاب متبادل وتزوجنا.. كان رقيق الحال لا يملك إلا بيتاً صغيراً وعملاً بسيطاً.. رضيت به وعـــودت نفسي على التدبير والتقتير حتى تحسنت حاله. فاشترى بيتاً واستثمره.. ولم يفكر أبداً بالتوسعة علينا.. ونشأ أولادي على سياســـة شد الحزام.. فلا مجال لأي بحبوحة.. وأنا صابرة راضية

أحـــاول إنعاش جو الأسرة بالرضى والتدبير.. علقت آمالي على أولادي.. وقـــد أصـــبح الكـــبير في الجامعة والوسطى في ربيعها الخـــامس عشـــر كزنبقة تتفتح فتلفت الأنظار بحلاوتها.. تعرفينها هالة؟

أجل أعرفها.. رعاها الله ورد غربتها..

تصـــوري يا أم سمير.. لقد كان أبوها أشقى الناس بتفتحها.. كـــان يحـــدق فيها طويلاً ويهمهم: (البنت صارت فتنة).. يقسو علـــيها ويضـــربها إن خرجت من البيت.. والغريب في الأمر أنه أحياناً كان يدللها ويباسطها ويشير إلى مفاتنها.. وكما تعلمين ما لبث أن زوجها لأول من طلب يدها.. حاولت الاعتراض فالبنت مازالت صغيرة.. والشاب يريد أن يسافر بها طلباً للرزق.. لكن أبا كمال كان يستعمل لسانه ويديه في ضرب كل من يخالفه الرأي.. وهكـــذا زوجـــت هالة وسافرت.. والآن أقول: الحمد لله لعلها ارتاحت من هذا الجو العجيب الذي نعيش فيه.

عـــادت أم كمـــال لتمسح دموعها وهي تتمتم: اللهم احمها وارحم غربتها..

ربتـــت أم سمـــير على كتفها مواسية وقالت بحنان: لها الله يا حبيبتي.. الشباب كلهم يتغربون الآن فقد أصبحت الحياة صعبة.. وعسى أن يجمع الله شمل الجميع.. وبعد يا أم كمال.. أما تحسنت

أحوال جارنا..؟

- آه يـــا أختي.. لم أعد أعرف كيف أرضيه.. لقد اكتشف بعـــد عشـــرين عاماً أنني سمراء وأنه لا يحبني.. في كل يوم يرمقني بنظراته الساخطة.. ويمطرني بكلماته اللاسعة.. وَأنا أبذل جهدي في الـــتزين والتطيـــب.. دون جـــدوى.. فكرت أن أترك البيت وأمشـــي.. لكـــن إلى أين؟! إلى بيت أخي..؟ ألا يكفي أن أمي تعـــيش عـــنده بعد وفاة أبي..؟ ولست من حملة الشهادات حتى أشـــتغل وأعيل نفسي.. وأولادي بحاجة إلي.. وخاصة ابني الثاني فقـــد أصبح مراهقاً ويحتاج إلى من يفهمه ويرعاه.. خاصة مع أب من هذا النوع.. قولي لي: ماذا أفعل يا أم سمير؟!

وماذا تفعلين أكثر من ذلك..؟! هوني عليك يا حبيبتي فالحياة امـــتحان من الله وإنك تبذلين جهدك في حماية عشك وأولادك.. اصبري ولك الأجر العظيم من الله.. أنت مؤمنة وتقرئين القرآن.. أنسيت: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾..؟

ومـــرت أيام على تلك الجلسة الحميمة وأم سمير تنتهز الفرص للســـؤال عـــن جارتها.. وفي إحدى الليالي سمعت صوت جلبة في بيـــت جارتها.. تلتها زغردة وأغاني بهيجة.. تعجبت أم سمير.. هل زوجت جارتنا ابنها كمال..؟! هكذا دون علم من أحد..؟!

وفي الصـــباح انجلى الموقف.. فالعرس كان لأبي كمال وليس

لابــنه.. فــالأب أولى بالــزواج مــن ابــنه الشاب المحتاج إلى الإحصان..!! لقد فاجأ الرجل زوجته بالأمر الواقع.. ووقع الخبر على كل الجيران كالصاعقة.. فكيف بك يا أم كمال..؟!

مــرت أيــام.. وأم سمير حائرة كيف تواسي جارتها.. فلقد جــاءت العروس وساكنتها في بيتها.. وانزوت أم كمال فلم تعد تخــرج.. إلى أن جاء يوم تجرأت فيه أم سمير فقرعت باب جارتها وهي تحاول استجماع كل ما تقدر عليه من تماسك وكياسة.

لقد تخيرت وقتاً يخلو فيه البيت من الرجال.. وفتح الباب بعد لأي.. وانفــرج عــن وجــه جديد.. ألقت أم سمير السلام وهي تــتفحص العــروس.. بيضاء تميل إلى السمنة تلبس ثوباً فاضحاً مــبهرجاً.. والوجه ملطخ بكل الألوان.. والعينان فيهما كثير من الفتور والتوجس..

أنا جارتكم أم سمير.

ردت العروس بفتور: أهلاً وسهلاً.. أي خدمة؟

أريد أن أسلم على أم كمال..

حدجــتها العروس بنظرات عدائية ثم استدارت وأشارت إلى ناحية: إنها في غرفتها..

أســرعت أم سمير فنقرت باب الغرفة وهتفت: أم كمال.. أنا أم سمير..

العينان حمراوان.. والوجه أصبح داكناً.. والشعر مبعثر.. ألقت أم كمال بنفسها على أم سمير وغرقت الاثنتان في شهيق وبكاء..

اصبري يا أم كمال.. اصبري يا حبيبتي..

قولي لي بالله عليك من أين آتي بالصبر..؟!

ولكن كيف تم ذلك.. وكيف وجد من ترضى به زوجاً..؟!

من أين..؟! ألا تعرفين يا أم سمير أننا نعيش في مجتمع ظالم.. النساء فيه محرومات من العلم والعمل والمال.. لا نجاة لهن إلا بالزواج.. وما أكثر اللواتي يبحثن عن زوج وبيت.. إنها أرملة.. لها ولدان تجاوزا سن الحضانة فأعطتهم لأهل أبيهم.. لقد طار بها أخوها إلى أبي كمال وهو لا يكاد يصدق أن العبء انزاح عن كاهله.. فالزوج ستر..

وكيف حال أولادك يا أم كمال؟! لعل الصدمة لم تكن قاسية عليهم؟

أولادي يرون العجب.. لقد اكتشفوا أن أباهم يمكن أن يكون على غير الصورة التي عرفوه بها.. إنه يقضي أيام العسل على مرأى منهم.. إنه ناعم وغَزِلٌ وسخي.. ولكن مع غير أمهم.. ابني الكبير يهرب إلى دراسته وجامعته.. والثاني أصبح يتغيب عن البيت معظم اليوم ولا أدري كيف أحوطه وأحميه من رفاق

السوء.. والأب سادر لا يسأل إلا عن شهواته..

وأنت لماذا تحبسين نفسك هكذا؟

وماذا أفعل يا أم سمير؟! هل أخرج لأشاهد أفلام الغرام..؟! أم أخرج من البيت لأتلقى النظرات الفضولية.. وكلمات اللوم أحياناً والتعزية أحياناً أخرى..؟! ادعي لي يا أم سمير.. فإنني أكاد أجن..

عادت أم سمير تضمها وتواسيها وتبكي معها..

لا بد أن تخرجي من هذه القوقعة.. قومي معي يا أم كمال..

إلى أين..؟!

ألم تشتاقي إلى الياسمينة والشرفة؟!

استسلمت لأم سمير وهي تسحبها من يدها كطفل صغير..

رائحة القهوة تنعش الروح وأم سمير تتلقفها بلطفها وحنانها..

لا أعـــرف كيف أشكرك يا أم سمير.. لقد أنعم الله علي بك لتكوني الواحة الظليلة في صحراء حياتي..

هوني عليك يا عزيزتي سيجعل الله بعد عسر يسراً.. ما رأيك يا أم كمال أن تشتغلي..؟

تساءلت أم كمال بحيرة: وماذا أشتغل..؟

أي عمل شريف.. إن لديك إلماماً بالخياطة والتطريز..

ولكن هذا الإلمام لا يكفي لأمتهن الخياطة..!!

سكتت أم سمير قليلاً ثم قالت:

حسناً.. ما رأيك أن تنتسبي إلى دورة في تعليم الخياطة بأحد المراكز..؟

سكتت أم كمال تفكر.. من أين لها أن تدفع أجرة الدورة.. ؟! لم يبق معها من الحلي إلا خاتم الزواج..

فهمت أم سمير ما يدور في نفس أم كمال فبادرت قائلة:

لا تحملي هماً سأقرضك الأجرة الآن ثم ترديها إلي فيما بعد من حصيلة عملك.

فتحت أم كمال فاها لتعترض.. لكن أم سمير بادرتها:

لا تقولي شيئاً فإنني بحاجة إلى خياطة ظريفة صاحبة ذوق مثلك.. خاصة وأن ابنتي على مشارف الزواج.. لقد اتفقنا..

مضت أسابيع وأم كمال تغدو وتروح إلى دورة الخياطة. وبدأ شهريار يعترض ويعارض.. لكنه كان يسكت بمجرد أن تطلب منه نقوداً..!

وفي أصيل أحد الأيام وأم سمير تتعهد نبتاتها في الشرفة. طرقت أم كمال بابها:

أهلاً بأختي الحبيبة.. كم أنت (بنت حلال) فقد كنت أقول في نفسي: ليت أم كمال تشاركني قهوتي..

ابتسمت أم كمال ووضعت كيساً كان بيدها على الكرسي. وقالت:

لقـــد شمـــت رائحـــة القهوة.. ضحكت الجارتان وانطلقتا بالحديث مع رشفات القهوة..

متى تنتهي دورة الخياطة؟

لقد انتهت منذ أيام..

مـــدت أم كمال يدها إلى الكيس.. وأخرجت منه ثوباً أنيقاً على مقاس جارتها:

ما رأيك؟

هتفت أم سمير: ما شاء الله.. أهو من صنعك؟!

إنه باكورة عملي وأرجو أن تقبليه مني هدية.

أخذت أم سمير تتلمس الثوب وتتفحصه بإعجاب:

يا إلهي.. هذا كثير يا أم كمال..!!

بـــل هو قليل عليك يا أختي الحبيبة.. يا من وقفت إلى جانبي في محنتي وعلمتني كيف أخرج منها.. واختنق صوتها بالعبرات..

ضـــمتها أم سمـــير قائلـــة: ما أسعدني بك يا أم كمال لقد أصبحت خياطة ماهرة.

ثم أخرجـــت أم كمال من حقيبتها مبلغاً من المال قدمته لأم سمير:

أشكرك يا أختي على ما أسلفتني..

نظـــرت أم سمير إليها متعجبة.. من أين أتت بالمال..؟! إنني

أعرف (البير وغطاه)..

وهـــي لم تشتغل بعد..!! أعرفك يا أم كمال كرامتك أغلى عليك من كل شيء.. والله يعلم ماذا فعلت لتدبري هذا المبلغ..؟!

عـــادت تـــتأمل اليد الممدودة وتحاول أن تجد مفراً من قبول المـــال.. فلاحظـــت خلوها من خاتم الزواج.. التقت عيونهما.. فهتفت أم سمير:

هل بعت خاتمك؟!

لم أعد بحاجة إليه.. لقد تحررت منه..

ماذا تقصدين..؟!

وجـــدت أنني في وضع لا يحتمل.. كل شيء في البيت كان يقول لي: لم يبق لك مكان هنا.. فطلبت الطلاق من أبي كمال.. رفـــض أن يطلـــق لأنه غير مستعد لأن يدفع لي شيئاً من حقوقي الماديـــة.. فعرضت عليه المخالعة وفيها أتنازل عن حقوقي.. فوافق بســـهولة.. وهكـــذا تم الأمـــر.. وتحـــررت من عبئي.. وجئت أودعك..

وأولادك يا أم كمال..؟!

الكبير قادر على أن يستقل ويدبر أموره. وأما الصغير فسيأتي معي لأنه لا يتفاهم مع أبيه أبداً..

وأين تذهبين؟!

أسكن مع أمي وأخي وأشتغل وأصرف على نفسي وولدي..

اطمـــئني علي يا أم سمير.. فإنني الآن أشعر بالكرامة والراحة والحرية.. كما لم أشعر بها من قبل..

لقـــد كـــاد شهريار يكتم أنفاسي بعد أن داس على كرامتي ومشاعري.. وقد آن الأوان لأن أقول بكل كياني: لا..

وسواس

دس السـواك في جيبه بعد أن طاف به في أرجاء فمه للمرة الثالـثة.. بقي شارع واحد حتى يصل إلى المسجد وسيدرك صلاة الجماعة. أراد أن ينثني في المنعطف حين برزت في وجهه امرأة.. تـنحى بسـرعة وقد احمر وجهه وارتجف كيانه.. كانت حلوة الـتعابير رشيقة الخطى.. مرت كالنسمة وخلفته مبعثر المشاعر.. تمتم محنقاً:

إن النساء شياطين خلقن لنا أعوذ بالله من شر الشياطين

مـا هـذا التسيب؟ أليس لها أب أو أخ أو زوج يمنعها من التجول في الشوارع..؟

ملعون هذا الزمان.. إنه آخر زمان..

تفقـد لحيته الكثة وغطاء رأسه مستعيداً تماسكه.. وتابع إلى المسجد..

صـوت في أعماقـه يقول: لمَ لا تعود إلى زوجتك..؟ إنك بحاجة إليها الآن.. لا.. لا.. ليس للنساء سلطان عليّ.. ماذا يقول أصـحابي عني لو تخلفت عن صلاة المسجد..؟! ها قد وصلت.. توجـه إلى المـاء مباشر فجدد وضوءه.. الحمد لله لقد أعاد الماء سـكينتي إلي.. تناهـت إلى سمعه ضحكات لطيفة.. التفت فرأى

بعـض الأطفـال في ناحية المسجد يتراكضون.. سيفسد هؤلاء الأطفـال علينا صلاتنا.. توجه إليهم وقد تأبط شراً.. فر الأطفال عـند رؤيـته وخرجوا من المسجد لا يلوون على شيء. انتهت الصلاة.. سلم على جاره وخرجا إلى البيت يتحدثان...

- عـرِّج بنا إلى بائع المكسرات.. فإني أريد أن أتحف زوجتي بضيافة لزوارها اليوم.. لقد اتفقت الجارات على زيارتها.. ولا بد أن زوجتك ستأتي معهن.

- زوجتي..؟! قالها مدهوشاً.. ثم تابع:

- لا يا رجل زوجتي لا تخرج من بيتها إلا لضرورة.. ألا تعلم أن المرأة إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان؟!

- حـرام عليك يا أبا صالح.. البيت قريب.. دعها تروح عن نفسها..

- قلـت لك أنها لا تحب الخروج.. بدليل أنها لم تستأذني في ذلك..

بدأت الوساوس تنهش قلبه.. فبادر بالانصراف قائلاً:

- إني في عجلة من أمري.. السلام عليكم.

اتسعت خطواته والغضب يسابقه.. الويل لها.. لم تخبرني عن هذه الزيارة..

لا شك أنها تخطط للخروج متربصة فرصة ذهابي إلى الدكان

في المســـاء.. أجارنـــا الله من كيد النساء.. اقترب من باب الدار بهدوء وأدار المفتاح فيه مستنفراً كل براعته حتى لا يحدث ضجة.. ثم دخل متلصصاً..

كانـــت زوجـــته في ثياب الصلاة.. متكئة على الأريكة في إغفـــاءة بعـــد التســـبيحات.. وقف قليلاً يتأملها.. لا بد أنها قد أحست بحضوري.. الويل لها تتظاهر بالبراءة..

- تتظاهرين بالنوم..!

انتفضت مرعوبة على صوته: - بسم الله الرحمن الرحيم.. أبو صالح!! سامحك الله لِمَ لمْ تقرع الباب.؟!

- لكي أعرف ماذا تفعلين وماذا تخططين..!!

نظرت إليه مدهوشة: - أخطط..؟!

جلس على الأريكة وهو يتظاهر بالتماسك:

- من زارك اليوم؟

- لم يزرني أحد..!!

- عجيب.. كيف إذن تواعدت مع الجارات على الخروج؟!

نظرت إليه ببلاهة.. ثم هتفت:

- أنا تواعدت مع الجارات..!! من قال ذلك؟!

- الأخبار تصلني.. ولا يخفى عليَّ شيء.

- أي أخبار يا رجل؟!

- حرام عليك.

احـــتد وصـــاح: - كفـــاك كذباً.. ألم تخبرك جاراتك بأنهن سيخرجن لزيارة أم عمر مساء اليوم؟

- بل أخبرتني أم عمر..

قاطعها محتداً:

- ولم كذبت عليَّ؟ ألم تقولي مازارك أحد؟!

-بـــلى مـــا زارني أحد لقد كلمتني أم عمر بالهاتف ودعتني لمرافقة الجارات في زيارتها.. لكنني اعتذرت منها بأن الظروف غير مناسبة..

حملق فيها متشككاً:

- ولكنك لم تخبريني عن ذلك.. هل أنا آخر من يعلم؟!

- كنـــت أعلم أنك لن تسمح لي.. فآثرت عدم إغضابك.. وطويت عنك الأمر..

سكت محنقاً ثم دمدم:

- الهـــاتف اللعين.. أحدث وسائل الشيطان.. لابد من فصل الخط..

هتفـــت بحرارة: - أرجوك يا أبا صالح.. إنه فرصتي الوحيدة للاطمئنان على أهلي..

سكت مفكراً.. سيجد لهذا الهاتف حلاً.. يمكن أن يصنع له

رقماً سرياً.. ستخدم التكنولوجيا كل أغراضه (النبيلة).. لابد أن يُحبط كيد الشيطان..

قالت بتودد: - ما رأيك بكوب من الشاي.

حدجها بنظرة قاسية:

- تضـــحكين علي بكوب من الشاي..؟ أفهمك.. لكن متى يأتي اليوم الذي تفهمين فيه عليَّ (على الطاير)..؟!

- انصرفت عنه تسابق دموعها.. وفي القلب ضجيج حائر..

- ولماذا أفهم عليك (على الطاير) وأنت لا تريد أن تفهمني.. أو تفهم أحداً..؟!

***   ***   ***

يحكـــى أن أحـــد ملوك الفرس كانت لفمه رائحة كريهة.. تـــزوج مرات عديدة.. فإذا لاحظ ضيق زوجته من رائحة فمه.. طلقها وطردها من قصره.. إلى أن تزوج من امرأة صابرة لم تظهر منها بادرة ضيق.. فسألها مرة:

أليســـت رائحـــة فمي كريهة..؟! قالت: لا.. فغضب وثار قائلاً: - تكذبين علي؟! لا حاجة لي بزوجة منافقة.. وطردها..

- ماذا يريد شهريار..؟!

وهل في الدنيا مدرسة أو معهد يستطيع أن يعلم شهرزاد ماذا يريد شهريار..؟ وكيف تتعامل معه وتعالجه؟!

مسخ مشوَّه

نسمات شفافة تغمر القلب بالأنس والرضى تطوف بنا حول الكعــبة وسط أمواج لطيفة تتشح بالبياض من المؤمنين الصائمين والمعتمرين.

عمــرة في رمضان تعدل حجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.. كل الحمد لك يا رب إذ تكرمني بذلك.. صعدنا درجات مــن صــحن المسجد الحرام إلى رواقه ثم اتخذنا مجلساً تجاه الكعبة نرقــب الأفواج تتدفق بلا نهاية إلى صحن الحرم.. حيث الطائفين والقائمين والركع السجود..

بدأت ألوان المغيب تكسو المشهد بغلالة سحرية الألوان.. هل في الدنيا مشهد يماثل هذا في سكينته وجلاله..؟!

عمــال النظافة يلاحقون كل هباءة في المسجد.. والسقاؤون يملــؤون (الــترامس) بماء زمزم المثلج فقد اقترب موعد الإفطار.. نســاء ورجال من كل جنس ولون يملؤون الرواق أمامهم دلات القهــوة وأطــباق الــتمر وكؤوس زمزم.. ينتظرون الأذان. قال زوجي: ما شاء الله.. الحرم يبدو ممتلئاً ومازال الناس يتدفقون عبر الممرات.. وهو يفسح لهم..

ارتفــع صوت المؤذن بالتكبير.. فترددت أصداؤه من حولي..

وكبر المؤمنون في لحن خاشع مؤثر.. حتى أحسست أن العالم كله يكبِّر الله.. وامتدت الأيدي نحوي بالقهوة الشقراء والماء والتمر.. نظـرت إلى وجوههم.. هل أعرف أحداً منهم؟ أجل إنني أعرفهم كـلهم.. يعرفهم قلبي قبل عيني.. وجوههم سمحة وعيونهم تنضح بالحـب والطيـبة.. يقولـون: - هاكِ.. بسم الله.. ما أطيب ما أطعموني وسقوني..

غمـرت المسـجد الحرام حركة رائعة.. الكل يريد أن يفوز بتفطير الصائم.. قلت:

- هل في الدنيا حب أعظم من هذا؟ هز روجي رأسه موافقاً وهو يمسح الدموع من عينيه..

يـا أمـة محمـد صلى الله عليه وسلم ماذا دهاك..؟ نفسي فداؤك.. كيف تمزقت أوصالك وأنت تحملين كل هذا الخير..؟!

وأقيمت الصلاة فتقدم زوجي إلى صفوف الرجال.. ودخلت في صفوف النساء..

هـل أجـد لنفسـي مكانـاً وسط هذه اللجج من النساء والأطفال..؟

طالعني وجه أسمر لطيف لامرأة في منتصف العمر تلبس الزي الهندي.. ابتسمت ترد عليَّ تحيتي برطانة (وأليكم سلام) أفسحت لي مكاناً وسحبتني من يدي إليه بجانبها.

وانـــتظم عقدنا قائمات متراصات بين يدي الله.. وانطلقت القلـــوب هائمة نحو بارئها وهي تصغي لآياته يتلوها الإمام بصوته الخاشع الندي.. لا يعكر عليها إلا بكاء بعض الأطفال.

كـــادت الصلاة تنتهي حين انطلق بكاء حاد من خلفنا.. وفي لحظات رأيت طفلة تدرج عن يمين جارتي الهندية نحو الأمام وهي تصـــرخ وتشرق بدمعها.. لاشك أنها قد ضيعت أمها.. يا للطفلة المســـكينة ستضيع وسط هذا الزحام.. لكن جارتي الهندية بادرت فأمسكت بها وضمتها في حضنها.. لم تهدأ الطفلة فهي تبحث عن وجـــه أمها.. لكن جارتي منعتها من أن تتوه في الزحام.. ما أعظم ما فعلتِ أيتها الهندية الطيبة.. لقد تحرك ذكاؤك بمبادرة بينما كنت أنـــا حائرة.. ترى ما الذي جعل الطفلة تتوه عن أمها..؟ ولماذا لم تسرع إليها أمها ولو أثناء الصلاة..؟!

أستغفر الله العظيم لقد شوَّش الأمر علينا صلاتنا.. فارحمنا يا ربنا..

انتهـــت الصلاة فالتفت إلى جارتي وهي تمسح دموع الطفلة بحنان وتحاول تهدئتها.. فتحت فمي لأشكرها.. ففوجئت بذراعين ملفوفـــين بقفـــازين أســـودين ينتزع الطفلة من حضن جارتي.. وصـــوت حـــاد يقول: - هاتي البنت.. عيال آخر زمن ما يخلونا نعرف نصلي..!!

رفعت وجهي لأرى صاحبة الصوت.. فلم أرَ إلا خماراً أسود ينسدل فوق عباءة سوداء..

أدخلت المرأة وجه الطفلة تحت الخمار فسكتت.. إذن فهذه أمها..

شدهت لحظات أمام المشهد.. وصدر عن جارتي الهندية كلمات لم أفهم منها سوى (الحمد لله) والتفتت إليّ فالتقت عيوننا.. نظراتها الطاهرة تسائلني في عَجب: هل فعلتُ ما يستحق اللوم؟! ابتسمت وربتُّ على كتفها وأنا أقول: الحمد لله.. جزاك الله خيراً..

حاولت أن أنقل إليها امتناني بكل ما أملك من حركات وكلمات عربية وإنكليزية..

عدت أدور بعينيَّ بحثاً عن الأم (الشبح) وكلي عجب من هذا التشدد.. لقد كادت الطفلة تضيع.. والأم مصممة على ستر وجهها وهي في صفوف النساء.. والرجال منصرفون إلى صلاتهم ولن ينتبه إليها أحد لو كشفت وجهها لتعرفها ابنتها.. ثم لم تبادر إلى احتضان الطفلة لتمنعها من الشرود.. حرصاً على الصلاةَ؟! يا للعجب.. أهكذا يُفهم الدين؟!.. ولعلها شعرت أن هذه (السافرة) الهندية لا تستحق كلمة شكر.. وربما ظنت بها خبث الطوية.. رأيتها واقفة قرب عمود وابنتها على كتفها.. لعلها تنتظر

زوجهـــا.. مضـــت دقائق.. ثم أشار إليها (شهريارها) فانطلقت تمشي خلفه.. دققت به عن بعد فارتسمت في ذهني صورة كانت قـــد اســـتوقفتني أثـــناء دراستي في السيرة.. صورة شخصية رآها الرســـول صلى الله عليه وسلم يوماً فأغضبته.. حدث هذا عندما قســـم الـــنبي عطـــاء فأعطى بعض الزعماء بسخاء يتألف قلوبهم ويكسر عداوتهم.. فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجـــبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار.. فقال: يا رسول الله اتقِ الله..!! فقال صلى الله عليه وسلم: « ويلك أولست أحق الـــناس أن يـــتقي اللهَ؟!» ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: « لا.. لعله أن يكون يصلي ». قـــال خـــالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال صلى الله عليه وسلم: « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ». ثم نظـــر إليه وهو مُقفٍ (أي منصرف لا يبدو منه إلا قفاه) فقال: «إنه يخرج من ضئضئ (أي نسل) هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » (رواه البخاري).

إنها صورة بغيضة لرجل ضيق الأفق محروم من الفقه.. تنعكس أفكـــاره على وجهه وهيئته العامة.. إنها صورة مليئة بخطوط حادة تـــتقاطع بقســـوة ليس فيها انحناء لين.. تصوِّر لنا مسخاً ممجوجاً

لمفهوم التقوى..

رجل يظن أنه يمكن أن يُعلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى..!!

هلـــك المتنطعون.. الذين يقولون ما لا يفقهون.. ويحسبون أنفســـهم ســـادة العارفين والأتقياء.. ونجوم دعوة الله بين الكفرة والضالين..

فأين أنت يا شهرزاد من كل هذا؟

إنـــك إمـــا مغلوبـــة على أمرك تبحثين عن الستر والسلامة فتخرسين عقلك ولسانك فتخسرين كل أمن وسلامة..

وإما مغسولة الدماغ قد آمنتِ بشهريار - ذاك الرجل المشوه في فكـــره ومشـــاعره – فأنـــت منساقة خلفه.. تمجِّدين أمراضه وعقده..

مِزواج

وهـــل من أحد يتاح له أن يتجول في بستان عطر فيشم هذه الزهرة.. ويقطف تلك الزنبقة.. فيرفض؟!

- حرام عليك.. إنك تتجنى على بنات الناس..!!

قطب وجهه قائلاً:

- انتبهي لكلامك.. أنا أتزوج حلالاً ولا أرتكب الحرام..!

- وهـــذه هي المرة الخامسة التي تتزوج فيها..!! وكل واحدة تمكث معها شهوراً ثم تهجرها وتسيء إليها حتى ترضى بالتفريق.. هل هذه حياة يا وليد؟

ضحك وقال:

- أحلى حياة..

لقد كان شهريار يتزوج في كل يوم امرأة جديدة.. فيا لها من متعة متجددة..!!

- ولماذا لا تطلقني وتتركني في حالي..؟!

- لا لا.. لا تغلطـــي يا هناء.. أنت زوجتي وأم أولادي ولن أفـــارقك أبـــداً.. وكل تلك الزيجات نزوات.. إنك تعلمين أنني مـــذواق وأحـــب التـــنويع.. إنها مجرد تذوق لأصناف عدة من الطعام..

سكتت تتأمله وهو يتابع ارتداء ملابسه وتعديل هندامه.. إنه رغم وسامته وجاذبيته.. يثير اشمئزازها بكلماته..

- وهـــل المرأة عندك مجرد طبق طعام..؟! ألا تفكر بإنسانيتها ومشاعرها..؟

- إنهن يتهافتن عليَّ.. أنا لم أغوِ واحدة منهن.. قولي لي بالله علـــيك: شهرزاد هذه الإنسانة الرقيقة المشاعر.. لماذا تعرض كل مفاتنها على الرجال.. تتظاهر بالدلال وهي سهلة المنال..؟!

- ألا تعـــرف المثل القائل: الذي أوقعني في المر تحاشي ما هو أمر..؟

- علـــيك نـــور.. وأنا أحقق لهن آمالهن وأرضي مشاعرهن. المـــرأة في بلدنا تعاني من أوضاع صعبة وتبحث عن زوج يخرجها من معاناتها.. وأنا تحت الطلب..

- المسكينات يبحثن عن حياة زوجية مستقرة.. ولا يخطر في بالهن أنك تقطف ثم ترمي..

- أنـــا لم أكذب على واحدة منهن.. كلهن كن يعرفن أنني متزوج وعندي أولاد ولن أطلق زوجتي.. فما ذنبي إن كنَّ حالمات غافلات..؟!

أنهك الحوار أعصابها فقالت بتحد:

- حسناً.. فاتركني وشأني.. وأنا أيضاً أحب أن أنوِّع..

قهقه وليد ضاحكاً وقال:

- إنــك لا تتقــنين الكــذب والمغالطة يا عزيزتي.. إنك من (خامــة) ممتازة يا هناء.. ثم إن شهرزاد عامة تحب الاستقرار مع رجل واحد ولا تحب التنويع.

أحست غلياناً في رأسها.. حدَّجته بنظرات جريحة ثم أسرعت إلى الحمام..

ما هذه الظروف اللعينة التي تحيط بنا..؟!

وكيف ترضى امرأة برجل متزوج..؟!

وأي انحطاط جعلها ترضى بانتزاعه من زوجه وأولاده..؟!

ألم يبقَ في الناس ضمير ولا أخلاق..؟!

الكل يركض لاهثاً خلف شهواته.. رجالاً ونساءً..

هــل سأبقى طيلة حياتي مرعوبة على زوجي كلما خرج من البيت وكلما جلس إلى التلفاز..؟!

وكيف أحمي أولادي وسط سعير تؤججه شياطين الإنس..؟!

الماء البارد أخمد بعض غليانها.. أخذت تقول لنفسها:

إن بإمكــاني أن أخلع نفسي منه.. لكنني رغم كل ما يفعل أحــبه.. والأهــم مــن ذلك أنني أحب أولادي.. ما ذنبهم حتى يتشردوا.. آه يا رب.. إنهم قلبي وأغلالي..

فوجئــت بــه حــين خرجت جالساً لم يغادر.. نظرت إليه

بدهشة..!! قال برود:

- لم أشأ أن أتركك غاضبة.. اغفري لي يا حبيبتي.. سكتت ولم تحر جواباً..

قام قائلاً: - ألا تريدين شيئاً من السوق؟

- قالـــت بهـــدوء: - لا أريد شيئاً منك.. سأحتضن أولادي وافعل أنت ما يحلو لك..

اقـــترب منها وأدار وجهها نحوه بيده ونظر في عينيها.. وقال بحرارة:

- لا تيأسي مني يا هناء.. ربما أتعافى وأصبح عاقلاً يوماً ما..

حزيران ٢٠٠١م

من المسؤول ؟؟

مـــن بين كل اللغات العالمية أحب لغة العيون.. لا أنكر أنها معدومة عند كثيرين.. أصحاب الوجوه الباردة والعيون الخامدة.. ولا أنكـــر أنها صعبة التفكيك عند آخرين.. لكنها عذبة وشجية عـــند كـــثيرين.. أولئك الذين تتحدث إليك عيونهم الصافية.. لا يعرفون الخداع والتمثيل.. ولا يقدرون على الكتمان والغموض.. تقرأ في عيونهم آيات الحب تارة.. ونبرات العتاب أخرى.. تسمع فـــيها ضجيج الغضب.. ويبهرك فيها بريق السعادة.. ويسحبك الحزن فيها إلى غور عميق..

عرفـــتها خجولة صموتة منطوية على نفسها.. يرتجف صوتها من الارتباك عندما يأتي دورها في قراءة الآيات في الفصل. تلطفت إلـــيها بلساني وعينيَّ.. وربت على كتفها مراراً مادحة مشجعة.. فلقـــد كانت مجدة في دراستها وجيدة في قراءتها.. لكن أمراً ما في أعماقهـــا يزلزلها ويفقدها الثقة بنفسها.. كانت تفر بعينيها مني.. لكـــنها شـــيئاً فشيئاً أخذت تركن إلي.. وقرأت في عينيها مودة وحياءً.. وحزناً عميق الغور.. كنت أتأمل وجهها الأسمر اللطيف بيـــنما هي تغض بصرها عني باسمة هاربة من وقع نظراتي.. إلى أن

سنحت لي فرصة لأدرك سر هذا الشجن.

كنت أسجل بعض المعلومات المطلوبة عن الطالبات في مدرسة القرآن. وجاء دورها فسألتها:

- عزيزة.. كم عمرك؟

- عشرون عاماً.

- في أي مرحلة من الدراسة؟

- تركت الدراسة منذ المرحلة المتوسطة.

سألتها بود:

- ماذا؟

ابتسمت وقالت باقتضاب: - سأعود للدراسة في العام القادم إن شاء الله.

- هل أنت متزوجة؟

- بل مطلّقة.

صدمني جوابها الذي لم أتوقعه.. ولم تشأ أن تضيف كلمة أخرى..

التقت عيوننا لحظات كانت كافية لنقل النزيف إلى قلبي.. وغضت بصرها بهدوء فآثرت أن ألملم الجرح و أقف عند هذا الحد.. وكلمات النبي صلى الله عليه وسلم تضج في أذني: «وكسرها طلاقها» مسكينة لقد كسر قلبها.

وفي البيت ترددت كثيراً قبل أن أتصل بها هاتفياً خوفاً من أن أنكأ جرحها..

لكن ألا يحتاج المكلوم إلى قلب مخلص يبثه آلامه؟

بادرت إلى الاتصال وبدأتها بالاعتذار:

- آسفة جداً إن كنت قد أزعجتك اليوم بسؤالي.

- أبداً يا (خالة) أنا أحبك وأرتاح إليك.

- هـــل لك أن تفتحي لي قلبك فأنا أختك وأحب أن أخفف عنك.

تنهدت وقالت: - الحمد لله.. هذا قدر الله وأنا راضية بأمره.

وبعد حوار بسيط انطلقت تحدثني بالقصة:

- منذ أربع سنوات زففت إلى زوجي بحفل بسيط. واستقبلت حـــياتي الجديدة بالبهجة والحبور. كان زوجي شاباً طيباً متواضعاً يعمل في وظيفة حكومية.. تفتح قلبي البكر على محبته والتعلق به.. ورفرفت ظلال السعادة والهناء على بيتنا الصغير..

ونعمنا بالستر في الرزق فحمدنا الله تعالى.. وازدادت سعادتنا عـــندما رزقـــت بطفلـــتي أروى التي ملأت علينا البيت حبوراً.. ومضت الأيام رخية وادعة.. حافلة بالهناء عامين كاملين.. وأروى تزداد حلاوة.. لقد أصبحت تعدو في أرجاء البيت وتهتف: ماما.. بابـــا.. وتعبث بكل ما تقع عليه يداها.. ونحن مفتونان بمتابعتها..

إلى أن جـــاء ذلـــك اليوم المشؤوم الذي عاد فيه زوجي من عمله واجمـــاً ساكناً.. ولبث ساعات وهو يفكر صامتاً.. يطرق حيناً.. ويـــتظاهر بالتعب أخرى. وأنا أحاول أن أسري عنه وأحل عقدة لسانه.. وتكلم أخيراً.. وخرجت الكلمات من فمه مرتجفة:

- إنهم يلاحقون تنفيذ القرار بمنع موظفي وزارتنا من الزواج بـــ (أجنبية) لا تملك الجنسية.. وكنت أظن بأن الأمر لن يتطور بهذا الشكل الجدي..

فوجئت بالأمر.. وسألته ذاهلة:

- فإذا كانوا متزوجين من امرأة حبشية؟

أشـــاح بوجهـــه وقـــال: - عليهم أن يطلقوا زوجاتهم.. أو يفصلوا من وظيفتهم..!!

- لكنها مسلمة عربية وليست أجنبية؟

هز رأسه يائساً حزيناً: - لكنها لا تحمل جنسية بلدنا..

أخرستني الصدمة برهة.. ثم انطلقت أسأل بإلحاح من لا يريد أن يصدق أمراً يروّعه:

- ولـــو كان عندهم أولاد..؟! لا يمكن..! هل أنت متأكد؟ لاشك أن في الأمر خطأ ما؟

أمســـكت بـــيده وهتفـــتُ: - قل لي أن في الأمر خطأ بالله عليك..

هز رأسه بأسى.. وسحب يده من يدي واستدار ليخفي دمعة لمعت في عينيه.. دارت الدنيا في عيني و لم أقوَ على الكلام أكثر من ذلك. فانسحبت إلى ركن قصي جلست فيه كسيرة القلب دامعة العـين.. أتساءل: ترى ماذا سيفعل زوجي..؟! وأي خيار صعب سيختار؟! كنت أعلم أنه نشأ في أسرة رقيقة الحال و لم يحصل على هذه الوظيفة إلا بشق الأنفس.. فكيف يمكن له أن يدبر قوت أهله لـو حرم منها..؟ ولكن هل يمكن أن يتخلى عني بهذه البساطة؟! وابنتنا أروى ماذا سيحل بها؟ وما ذنبها؟ وما ذنبي أنا أن أحرم من زوجـي وبـيتي وابنتي؟! هل أنا حقاً أجنبية؟! ألست مسلمة؟ بل وعربية؟ فكيف يقولون عني أجنبية؟!

وخدعتني عواطفي لفترة.. إذ لم يصدق قلبي أن زوجي يمكن أن يختار الفراق.. ووطنت نفسي على أن أشاركه السعي لتحصيل الـرزق ولو بالخدمة في البيوت.. وسيكون حرصه علي أكبر من كـل معانـاة.. وسنطرق باب الكريم: (وفي السماء رزقكم وما توعدون..)..

وتنهدت بحرقة وخرجت الكلمات مرتجفة من قلبها:

- ولكـن الحياة أقسى من أن تعير القلوب التفاتاً.. وكثيراً ما تكـون لقمـة العيش مغمسة بالدم والدمع بالنسبة للمساكين من أمثالنا. فلم تمض أيام حتى تسلّمت ورقة الطلاق.. وأخرجت من

بـــيتي دون أن أسمـــع كلمة وداع من زوجي.. ماتت التعابير في وجهـــه وبدا صامتاً كالقبر.. ولبثت ابنتي معي أياماً.. لكن جدها انتزعـــتها مـــني بعد ذلك بحجة أنها يجب أن تربى وتتنعم في بيت أبيها.. ولن يحرموني من رؤيتها بين حين وآخر..

انقطـــع صوتها المتهدج على الهاتف.. ولم أعد أسمع إلا لهثات حرّى.. بذلت جهدي كي أتماسك وأقول لها: - لك الله يا ابنتي كم تعذبت.. وعسى أن يعوضك الله خيراً.. ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾..

أقفلت الخط وقلبي تملؤه غصة وفكري تائه في دوامة..

ترى من هو المسؤول عن تلك المأساة..؟!

١٩٩١م

حوار يخمش القلب

الحـــر شديد والشمس تلسعني وأنا أمشي وأتلفت باحثة عن سيارة أجرة.. لاحت واحدة من بعيد فأشرت إليها، ثم تبين لي أن فيها امرأة.. لكن السائق توقف وسأل: - إلى أين؟

قلـــت: -قـــرب القنصـــلية السعودية. ونظرت إلى الراكبة باستفسار.. فقال السائق: - تفضلي.. ستنـــزل الأخت بعد قليل.

صـــعدت شاكرة لهما. وبعد قليل طلبت المرأة من السائق أن يدخل في أحد أزقة المزة القديمة.. ثم نزلت بعد أن سلك فيها بضع حـــارات.. قـــال السائق بعد مغادرتها: أما تستطيع أن تمشي هذه الخطوات البسيطة بدلاً من أن تجعلني أدخل بين الحارات؟!

قلت: - من يدري لعل لها عذراً..

قـــال باندفـــاع: - إنهـــا صبية وبكامل قواها..! لكن الناس أصبحوا يودون لو يدخلهم السائق إلى بيوتهم..!!

قلت: - سبحان الله.. مع أن الحركة بركة.

قال: - صحيح يا أختي.. والله إنها عافية للجسم ولكن الناس أصيبوا بالكسل.

قلـــت: - الأطـــباء يقولـــون للكبير إياك أن تستسلم للراحة وعلـــيك أن تمشـــي بقدر استطاعتك وإلا حكمت على نفسك

بـــالموت.. وحتى من أجريت له عملية جراحية لابد أن يمشي في اليوم الثاني.

قـــال: - والله يـــا أخـــتي لقـــد طلبت مني زوجتي غسالة (أوتوماتيك) فقلت لها: إما أنت أو الغسالة.. وأقسمت على ذلك يمين طلاق..

أحسست بوخزة في قلبي وكأنني تلقيت صفعة على وجهي.. ألا يعلم أنه يهين كل النساء بهذا الكلام..؟!

كـــان يتكلم ببساطة وطيبة ويبدو من مظهره العام أنه على ديـــن وخلـــق..!! لكـــنه ابن هذا المجتمع.. مجتمع توحي كلماته وتعبيراته وحركاته بمهانة المرأة.

قلت له:- سامحك الله لا داعي لأن تجرحها بمثل هذا الكلام..

قـــال:- والله يـــا أختي قلت لها ذلك.. وأنا قادر على شراء الغسالة.. ولكن لتتحرك وتعمل فالحركة بركة كما قلتِ..

قلت: - لعل لديك أطفالاً صغاراً والغسيل كثير..

قـــال: - همـــا طفـــلان فقط.. ماذا ستفعل طول النهار..؟! فلتغســـل وتشتغل.. أليس هذا أفضل من (الغندرة) والثرثرة..؟! انظري على عرض الشارع.. مالهن من عمل إلا (الغندرة) والثرثرة والتسكع..!

كنـــت أسمع وأنا حائرة كيف أصحح له أفكاره؟ وهل يمكن

أن تعدّل كلماتي في دقائق حياة ثقافية استنشقها قرابة ثلاثين عاماً مـــن بيئـــته؟! ونساؤنا قد تشربن هذه الثقافة المهينة حتى ارتضين الهوان.. واكتفين بالثرثرة و(الغندرة) دوراً..

أخرج من جيبه لفافة وكاد يشعلها.. رغم أن التدخين ممنوع داخل سيارات الأجرة بقرار جمهوري يلزمه بدفع غرامة لمن يضبط متلبساً.

بادرته قائلة: - ما رأيك بسُكّرةٍ.. أليست أفضل من الدخان؟

ضـــحك وتقبل الموضوع بروح رياضية.. لكنني لم أعثر على سُكّرَةٍ في حقيبتي، فقلت: - لا خيبنا الله.. آسفة لم أجد شيئاً..

قال ضاحكاً: - (ولا يهمك يا حجة).. لن أدخن الآن..

كـــدت أقـــول لـــه: - ألا تقول لك زوجتك: إما أنا وإما الدخان؟!

لكنني أمسكت لساني.. وأخذت أفكر في حالة القهر الثقافي الـــذي تعيشه المرأة عندنا.. حتى أنها تتقبل أن يقول لها الرجل: إما أنت وإما الغسالة الأوتوماتيك! ولا يخطر في بالها أن تقول له: إما أن تترك التدخين أو أتركك..

وشتان بين الأمرين.. فالأول تعسفي لا منطقي..

بيـــنما الثاني يؤيده الدين والعلم والمنطق.. وأي ظلم أكبر من أن يحرمها من الهواء النقي الذي هو حق مشاع للجميع.. ويتسبب

بالمرض لها ولأولادها..؟!

لكـــنها هي أيضاً مغسولة الدماغ بثقافة البيئة التي تجعل مصير المرأة.. بل وحتى أنفاسها.. معلقة بيد الرجل..!!

أيار ١٩٩٩م

سيعتذر..

- ما بال (ست الكل) وجهها معكر الصفاء؟

انتبهـــت أم كـــريم من شرودها الواجم.. التفتت إلى كريم وحاولت أن تبتسم وهي تقول:

هموم الحياة يا ولدي..

- فـــرَّج الله عنك كل هم.. هيا هيا يا أم كريم ألقي حملك على كريم وارتاحي.. أحب أن أرى نور البسمة في عينيك..

ابتسمت من قلبها وكادت الدمعة تنبثق من عينها.. ما أعذب هذه اللحظة.؟!

شـــاب في أوجِ نضارته يخفض الجناح لأمه المتعبة.. ما أعظم عطاءك يا رب..!

- رعـــاك الله يـــا حبيبي.. إنها أمور تعودت عليها.. متاعب البيـــت وأمـــور إخوتـــك.. دعك من هذا واخرج مع أولادك ليستمتعوا بالعيد..

لملمـــت جوانحها المبعثرة.. وألقت عليها ستاراً من الانشراح الظاهـــري صرفته به عنها.. وعادت إلى تنظيف الأواني وترتيب الأثاث.. اللملمة والتنسيق لإعطاء البيت رونقاً يليق ببهجة العيد.. الكـــل يســـتمتع بإجازة العيد إلا الأمهات.. فالعيد عندهن عمل

مستمر.. هزت رأسها وكأنها تطرد الرغبة في الاسترخاء. لا بد من الإسراع في تحضير طعام الغداء.. فالأولاد يحبون الاجتماع في العيد على طعام أمهم..

أوه.. الجرس يقرع والزوار يتوافدون.. أين أنت يا أبا كريم..؟! لماذا تأخرت وقد أعطيت موعداً لأقاربي بالزيارة..؟! ماذا سأقول لهم؟ يا له من إحراج..! هل أسأل عنه في بيت أهله..؟ لا أفضل ذلك فقد ينشغل بالهم عليه إن لم يكن عندهم.. هل حصل له مكروه..؟ أعوذ بالله من وسوسة الشيطان.. اللهم احفظنا من كل سوء. كان عقلها يضرب أخماساً بأسداس وهي تتصنع الابتسام والتودد وتعتذر عن غياب زوجها للزوار..

- كيف حالكم..؟ لقد اشتقت إليكم..

ما هذا النفاق..؟! الحقيقة أن زحمة الأعمال والهموم لا تترك لها فرصة لأن تشتاق لأحد.. سامحك الله يا أبا كريم.. ألا تهتم بمشاعر غيرك؟! أيعقل أن تتعمد إخلاف الموعد..؟

لابد أن في الأمر سراً.. بل إنه يتعمد التأخر لأن الضيوف من أهلها وهو لا يهتم بمجاملتهم لقد أسرع بالخروج مبكراً وكأنه طفل ينطلق إلى العيد متحرراً من كل التزام..!

ولم لا..؟ إنه يعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام.. فزوجته طيبة متسامحة.. تحاول ترقيع كل خلل..

صوت بغيض يحاول أن يسيطر على فكرها.. أنت السبب.. لقد عوّدته بتسامحك على التهاون واللامبالاة.. لماذا لا تثورين مرة لكرامتك..؟!

إنـــك بهـــذا الســـكوت تحفظين للرجل الشرقي ماء وجهه وتتركينه يستمرء الأنانية والتمركز على الذات..

تســـاءلت في أعماقها: - أحقاً يمكن أن يكون التسامح مؤذياً إلى هذا الحد..؟!

أجاب عقلها:

- بـــل إنها قلة علم.. التسامح إن وضع في غير مكانه يصبح علقماً..

صوت مليء بالعذوبة والمرح أخرجها من دوامتها تلك..

- كل عام وأنت بخير يا أمي ..

احتضـــنت أسمـــاء أمهـــا بحنان.. عبير الحياة الأخاذ ينعش روحهـــا.. هـــا هـــي الأيدي الرقيقة لحفيدها تمتد إليها بزهرات الياسمين:

- كل عام وأنت بخير يا جدتي.. أنساها عناقهن وقبلاتهن كل هم.. فما أحلى هذه النسمات المفعمة بعطر المحبة.. إنها ترد الروح إلى قلبها..

أســـرعت تعد الطعام لعائلتها الحبيبة.. فعيدها هو اجتماعهم

وتحلقهم يتبادلون المرح والمزاح..

أخيراً ظهر أبو كريم محاطاً بهيبته.. وسأل وكأن شيئاً لم يكن:

- هل الطعام جاهز..؟

قالت بهدوء ودون أن تلتفت إليه: - كل شيء جاهز..

يا إلهي ما أشد مكابرته..؟! ألا يحاول أن يعتذر؟!

لم تستطع أن تتحرر من انقباضها الهادئ.. حاول الأولاد تلطيف الجو فتظاهرت بالتجاوب معهم.. ثم انصرفوا جميعاً..

وعادت هي إلى الململة والتنسيق.. وأبو كريم ما زال يتصرف بشكل عادي..

وهي تعلل نفسها.. لا بد أنه سيعتذر..

سألها عن القهوة المرة.. هل هي ساخنة وجاهزة من أجل الضيوف؟

لم تعجبها هذه المناورة.. فأجابت بالإيجاب دون أن تلتفت.. فانصرف إلى غرفة الجلوس.

تساؤلات جمة تضج في نفسها.. هل كان تصرفها سليماً؟!

أليس من الأفضل أن تبدأه بالعتاب؟! بل هو الذي ينبغي أن يبادر إلى الاعتذار..

فلقد لمّح له كريم أن الضيوف قد سألوا عنه فهل نسي موعده معهم؟ ولكنه قال ببساطة: - شُغلتُ ببعض الزيارات.. هذه

فوضى العيد.

هكذا إذن؟! الذنب ذنب العيد..!! لا.. لا بد أن يعتذر.

انتهى إلى سمعها صوت التلفاز.. لقد جلس إليه متجاهلاً كل شيء..

وبعـــد فترة من الانتظار والترقب.. تسللت تسترق النظر إليه ماذا يفعل..؟

إنـــه غـــارق في متابعة مباراة لكرة القدم.. عادت تجر أقدام الخيبة..

ومع ذلك لا بد أن يعتذر..

بعد قليل علا صياحه المرح مع الصائحين:(جول).. (جول).. يا سلام..

اســترخت عــلى الأريكـــة في غرفتها.. وفكرها ينطلق بين الحاضر والماضي..

تـــتأمل.. كـــيف وصل الرجل الشرقي إلى هذه الدرجة من التأزم..؟!

إنـــه يعجـــز عن الاعتذار.. إنه يشعر أن الاعتذار ينقص من رجولته.. وخاصة إذا كان موجهاً لامرأة..!!

مرة أخرى سمعت صوته يهتف مع المباراة.. إنه يحاول تغطية انزعاجه وتأزمُّه..

إنه يبحث عن مخرج من هذا العجز عن الاعتذار..

هل أبقى هكذا في انتظار أن يعتذر..؟

أم ينبغي أن أساعده.. لأنه لن يرتاح حتى يعتذر..؟

أمـــا آن لهـــذا الشـــرقي أن يقـــف على قدميه مستغنياً عن مساعدتي ويتقدم بنضج ورجولة.. كي يعتذر..؟!

نيسان ١٩٩٨م

ونجني من فرعون وعمله

تعثرت الكلمات بالآهات المندفعة من صدرها وهي تردد باكية:

- أشيري علي يا أختاه.. ماذا أفعل..؟

كانت علياء تتأمل جمال صديقتها الباكية نوال وشبابها الغض.. والحسرة تعتصر قلبها.. هل يتصور الناظر إلى هذا البهاء الأخاذ أن وراءه كل هذا العذاب..؟!

وعادت بها الذكرى إلى أول الحكاية.. يوم كانت نوال تستقبل ربيعها الرابع عشر..

تتفتح كالبرعم الغض وتخطو نحو إنهاء المرحلة الإعدادية في دراستها.. سقى الله تلك الأيام العذبة.. كنا نمرح كالأطفال في ربوع المدرسة لا نعرف هماً ولا غماً.. نتنافس في الدراسة ونتبارى في الحظوة عند المعلمات.. وكانت نوال محط الأنظار بجمالها ودماثتها وتألق بسمتها.. لم يكن يعكرها إلا معاكسات الشباب في ذهابها وإيابها بين البيت والمدرسة.. رغم تحصنها بلباس محتشم يجعلها كبرعم ملفوف بأكمامه.. كان العام الدراسي يمضي حثيثاً ونوال تتحفنا بين حين وآخر بأخبار الخاطبات اللواتي يلاحقنها بأساليبهن الممجوجة ويتفحصنها كما يتفحص التاجر مواصفات

البضـــاعة قبل أن يشتريها.. وأمها تصدّهن قائلة: - ابنتي مازالت صـــغيرة.. كـــان هذا مثار تندر لنوال وتذمر في بعض الأحيان.. وفوجئنا قبل الامتحان بشهر بانقطاع نوال عن المدرسة.. وعلمنا بعـــد أيـــام بأنها تجهز للزواج.. مازلت أذكر أنني صعقت للخبر وأسرعت في زيارتها..

- كيف تتركين يا نوال المدرسة؟ وشهادة الإعدادية.. لم يبق سوى شهر؟!..

ردت نوال باستخفاف:

- ومـــاذا أفعـــل بالإعداديـــة؟.. ومـــاذا تستفيد الفتاة من الشهادات؟! إن مستقبلها هو زوج مناسب وبيت سعيد..

وازدادت دهشتي.. - زوج مناسب..! ترى كيف أصبح هذا العريس مناسباً..؟! ولفتاة لم تكمل الرابعة عشرة..؟!

إنـــه رجـــل أعمال ناضج.. (مليء) سخي اليد أحتمي بظله وأرتـــاح من تحكم أبي وإخوتي.. ومن الخاطبات.. والمعاكسات.. وقد قدم لأبي مهراً طيباً أنقذه من أزمة مالية.. فكيف أرفض..؟!

انتبهت علياء من شرودها على صوت نوال:

- أشيري علي.. ماذا أفعل؟ آه.. كم كنت حمقاء حين قبلت بهـــذا الزواج!.. لقد دخلت إلى بيته منذ خمسة عشر عاماً.. كنت صـــغيرة حالمة.. رأيت نفسي في البداية مثل أميرة في قصر فيه من

الأثـــاث والرياش ما يرضي أحلامي.. وانقضت السنوات الثلاث الأولى وزوجـــي يقـــيم الحفـــلات والسهرات في بيته لأصدقائه ويصـــطحبني معه دائماً إلى السهرات عندهم.. كان علي أن أتحلى بأبهى زينة وأتقن الرقص والمؤانسة وتقديم الشراب.. وكم أوجعتني نظـــراتهم المسعورة.. وألفاظهم الفاحشة.. كنت في البداية أنتشي مـــن نظـــرات الإعجاب وكلمات الغزل.. لكنني بعد مدة صرت أشعر بالهوان.. شيء ما في داخلي أصبح يقرعني ويوبخني.. مع أنني تمســـكت برفضي لتعاطي الشراب رغم سخرية زوجي مني ونهره لي.. وتعففت عن التجاوب مع كل بادرة إغراء بذلها لي أصحابه الخبـــثاء.. ثم أصـــبحت أماً وسعدت كثيراً بولدي فالأمومة تملأ القلـــب حباً ووقاراً.. ثم أن ولدي قد حجبني قليلاً عن سهراتهم.. ممـــا جعلـــني أستعيد بعض سكينتي.. لكن زوجي سادر في غيِّه.. ســـاخط علي أنني لا أشاركه في سكره.. وتلقيت اللوم من أهلي عـــلى تفريطي بزوجي.. (لابد أن ترافقيه حتى لا تشرد عينه إلى غـــيرك.. وما أكثر المتهافتات عليه أيتها الحمقاء).. ومضت علي ســـنوات وأنـــا أتـــأرجح بـــين حرصي على زوجي وبين قلبي وضـــميري.. وأصبحت أماً لأربعة أولاد.. فانقطعت عن مرافقة زوجي إلى سهراته منذ أن رزقت بالرابع بحجة الانشغال بالأولاد لكن بيتي كان معرضاً لاستقبال الأصدقاء والخليلات في سهراتهم

بين فترة وأخرى.. تصوري يا علياء.. لقد أصبحت له خليلات..!! يتصلن بالهاتف يعاكسنني ويكايدنني.. امتلأ قلبي بالثورة.. وبحثت عن مخرج فلم أجده إلا بالفزع إلى الله.. لقد كانت آيات الله تناديني ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾ وبدأت أرتاد المساجد وأحضر حلقات العلم والذكر.. وأدركت مقدار الجرم الذي ارتكبته حين جاريت زوجي في معاصيه.. وبدأت أتضرع إلى الله بدموعي أن يغفر لي ويهديني إلى طريق النجاة وسط دوامة من اللجج تكاد تكتم أنفاسي.. صحيح أنني حتى الآن أحمي أولادي من اكتشاف حقيقة ما يفعله أبوهم.. لكن الأولاد يكبرون.. ويلاحظون.. ويسألون.. وسيأتي اليوم الذي فيه يعرفون.. وأنا حائرة.. لا أقدر على الاستنجاد بأهلي لأنهم يلقون باللوم علي.. ولا أطيق البقاء في بيت تهدده المعاصي.. طلبت منه الطلاق مرة وقد فاض بي شجني فقال بحدَّة:

- نجوم السماء أقرب إليك من ذلك.. ولئن تركت البيت فلا رجعة لك.. ولأحرمنك من أولادك..

يا إلهي ماذا أفعل؟!.. هل أفارق زوجي وأخالعه؟!.. فمن يحتضن أولادي؟ ومن يحميهم من الضياع؟ وأنا مكسورة الجناح لا أقدر على الكسب والعمل ولا أحمل شهادات تمكنني من الاستقلال بنفسي وبهم.. الآن أدركت كم كنت غبية حين

وافقــت على الزواج.. وممن؟! من رجل لا أعرف شيئاً عن دينه وخلقــه؟!.. لكنني كنت طفلة عاجزة عن التمييز.. فلماذا أوقعني أبي في هذا المصير؟..

وبــين شــهقات كادت تقطع نياط قلبها.. رددت بصوت متقطع:

﴿رب ابــن لي عــندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾..

ضمتها علياء بحنان وقالت: - اصبري يا أختاه فما بعد الصبر إلا الفرج.. لقد ضحيت من أجل أولادك وآثرت الصبر على كل شــيء حتى لا تشرديهم.. وإن الله لن يتخلى عنك وسيجعل لك من هذا الضيق مخرجاً.. اطلبي له الهداية يا نوال فما ذلك على الله بعزيز..

- كيف يهتدي وهو غارق بالآثام؟

- لا تيأســي يــا نوال فإن الإثم مليء بالآلام.. وربما يصحو على لسعها في يوم من الأيام.. كما صحوت أنتِ..

*** *** ***

رنين المنبه يوقظها لصلاة الفجر.. لبيك ربي.. ما أحلى المثول بــين يديك.. التفتت إلى سرير زوجها الفارغ.. ألم يأت بعد؟.. هداك الله يا زوجي..

قطــرات الماء تنعشها وتغسل عنها كل هم.. وصلاة الفجر تمنحها السكينة والرضى..

أطلت من النافذة تتأمل كيف الصبح يتنفس.. الشارع خالٍ وهدأة الصباح تشوبها همسات لطيفة وأصوات أقدام خفيفة تنطلق عــائدة مــن المسجد إلى بعض البيوت في الحي.. طوبى لهم وقد شهدوا انبلاج الفجر وميلاد يوم جديد راجين المولى أن يسددهم ويرعاهم.. ليتك يا زوجي تكون بينهم.. مازال الشارع خالٍ من سيارته.. بدأت الوساوس تنتابها.. هل حدث له مكروه؟ ليس من عادته أن يتأخر إلى هذا الحد؟!..

أعــادت وصــل شــريط الهاتف.. فقد تعودتْ فصله إنهاء للمعاكسات..

هل تتصل للسؤال عنه؟ وبمن تتصل؟ رفاق سهره الآن يغطون في نــوم عمــيق.. الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً وقد انطلق الأطفــال إلى مدارســهم وخلا البيت إلا من (دادة) حليمة التي كانــت منهمكة في تنظيف المنــزل... وهي مازالت حائرة.. في مكتــب زوجهــا ترد المسجلة على اتصالها: (عذراً نحن الآن غير موجودين..).. رب الطف بنا.. لابد أن أمراً قد حدث.. ارتاعت لرنين الهاتف وأسرعت إليه..

- ألو.. مدام....؟

- نعم أنا هي.

- آسف سيدتي.. هنا مستشفى (....) زوجك عندنا منذ الفجر.. حالته الآن مستقرة وإن كان لايزال في غرفة العناية المركزة...

ودت لو تبتلع الطريق بخطواتها.. أتكون هذه نهايتك يا زوجي المسكين..؟ ماذا فعلت بنفسك؟..

تساقطت دموعها وهي تراه ممدداً معصوب الرأس.. موصولاً بأنابيب شتى.. فاقداً للوعي.. لم تكن تعلم أنه عزيز عليها إلى هذا الحد!!.. صحيح أنه يرتكب بعض المعاصي.. لكنه رب الأسرة وأبو العيال.. وقد حاول أن يسعدها ولو على طريقته..

همس الطبيب المناوب: - بقاؤك هنا ممنوع..

خرجت متثاقلة ووقفت عند الاستعلامات تسأل عن الحادث.. قال الطبيب الذي عالجه: - يبدو أنه قد أصيب بأزمة قلبية أثناء قيادته لسيارته فارتطم بإشارة المرور ومن حسن حظه أنه نقل بسرعة إلينا.. على كل حال اطمئني سيدتي إصابته بسيطة: جروح بسيطة في رأسه من زجاج السيارة وكسر في ساعده.. ولو كان يربط حزام الأمان لما أصيب بذلك.. قالت في نفسها: وهل يفكر السكران بحزام الأمان؟!

- وقلبه يا دكتور؟..

- نحن نتابع حالته.. وإن شاء الله سيتحسن..

أدارت ظهـــرها متجهة نحو الغرفة المحجوزة له.. لكن موظف الاستعلامات قال مستدركاً:

- عفواً سيدتي.. التفتت إليه..

- لابـــد من دفع مبلغ للتأمين من الآن.. ثم يتم الحساب عند تخرجه بالسلامة. آه.. خمسون ألف ليرة..!! وربما نحتاج إلى أكثر من ذلك لإكمال العلاج..

أســـرعت إلى البيت تبحث.. ليس من عادة زوجها أن يترك في البيت إلا مبلغاً بسيطاً لا يفي بالغرض.. ترى هل يحتفظ بنقوده في البنك؟ أم في المكتب؟ لم تكن تسأله عن شيء من ذلك.. ولم يكـــن يذكـــر لهـــا شيئاً عن أعماله.. الأمر عاجل ولابد من أن تتصـــرف.. هل أطلب قرضاً من أصدقائه؟ اتصلت بأحدهم فقيل لها نائم.. أما الثاني فقد اعتذر ببرود بأنه لا يملك سيولة.. والثالث لا يرد على الهاتف.. أسرعت إلى خزانتها وأخرجت بعض حليها دســـتها في حقيبـــتها بعناية.. وجمعت بعض الحاجات الضرورية لبقائها في المستشفى..

نادت: دادة حليمة.. انتبهي للأطفال جيداً أرجوك.. فقد لا أعـــود حـــتى المســـاء.. لا تذكري لهم أن أباهم في المستشفى.. سأخبرهم أنا فيما بعد..

قالت حليمة بإخلاص: - اطمئني يا خالتي.. أنت امرأة طيبة وسيجبر الله خاطرك..

*** *** ***

تماثل شهريار للشفاء.. وعرف أنه في تلك الليلة المشؤومة قد أطال في السهر وأسرف في الشراب.. وسلبته تلك (اللعينة) كل ما في جيوبه من مال.. ثم خسر سيارته في ذلك الحادث بعد أن كادت الأزمة القلبية تودي بحياته لولا لطف الله الذي أرسل إليه من ينقله سريعاً إلى المستشفى.. وعرف أن زوجته الوفية قد باعت حليها لتسدد نفقات علاجه وهي ما زالت تحوطه بحنانها واهتمامها.. وهو الذي كان يخونها وينصرف عنها إلى المعاصي.. وهو لا يدري إن كان سيقدر على تعويضها من ماله ورعايته.. فقد أضر غيابه عن مكتبه بكثير من أعماله.. وقد أنذره الطبيب وحذره من الإرهاق.. وشدد عليه بالامتناع عن شرب الخمر.. فقلبه لن يتحمل أزمة أخرى.. وهناك بوادر قرحة في معدته.. واضطرابات في الكبد والكليتين.. حقاً إنها أم الخبائث..

وبعد يا شهريار.. أما آن لك أن تتوب؟!..

*** *** ***

أدارت المفتاح في ثقب الباب.. فانفرج.. أمسكت بيده جذلى وأدخلته قائلة:

- الحمـــد لله عـــلى السلامة.. انظر لقد زين الأولاد البيت احتفالاً بعودتك..

أسرع أولاده يحتضنونه: - الحمد لله على السلامة يا بابا..

تساقطت دموعه وهو يلثم سواعدهم ويشم أحضانهم.. وتمتم في سره:

- أجل الحمد لله على السلامة من الذنوب والمعاصي..

حلاوة العافية..

- يرجى من أطفال باص الميدان أن يتوجهوا للخروج فالباص في انتظارهم..

سمعت نداء الإدارة عبر المكبر يردد تلك العبارة فأسرعت إلى باب المدرسة حيث وقف سائق الباص منتظراً..

- السلام عليكم يا أخي.. هل أطمع منك بخدمة؟

كـــان شاباً متوسط القامة بسيط المظهر تزين وجهه اللطيف القسمات لحية خفيفة..

ابتسم بأدب وقال: - تأمرين يا خالة..

- هل أستطيع أن أرافق الأطفال إلى (نادي الطفولة)؟

وكـــان ينطلق إليها بعد أن يأخذ الأطفال من مدرستنا ليأخذ أطفال الميدان من الروضة. وكنت أريد حضور اجتماع للمعلمات فيها..

قال مرحِّباً: - بكل سرور.

صـــعدت الباص وقد أنعشني أدبه وترحيبه.. وانتظم الأطفال على مقاعد الباص يتضاحكون ويتهامسون فرحين بجلوسي بينهم. هممت أن أطلب منهم أن يسمعوني بعض ما يحفظون من أناشيد.. لكـــن الســـائق كان قد ضغط على زر المسجلة حين أخذ مكانه

خلـــف المقـــود وانطلق بنا الباص.. وعلا صوت شجي بأناشيد دينـــية.. ووجدتـــني أرهف السمع والصوت والشعر واللحن قد ملكوا عليَّ فؤادي..

الحج وافانا هموا معانا.. لنـــزور نبينا وبيت الحرام

هموا معانا.. النبي دعانا.. هموا معانا.. النبي دعانا

على المدينة يحدو الركب.. إلى نبينا هام القلب

ربي بلغنا والصحب.....

إن جبرتم كسر قلبي.. أنتمُ أهل الذمام

أو هجرتم يا حبايب فعلى الدنيا السلام

قالت أقمار الدياجي قل لأرباب الغرام

كل من يعشق محمد في أمان وسلام

كان السائق يدندن مع المنشد بصوت خفيض.. وأنا أهيم مع وجد الصوفيين..

يا لهذا الشريط ما أرق ما يحدو به..

توقـــف الـــباص أمـــام نادي الطفولة.. والتفتُّ إلى السائق أشكره.. لم أكن أعرف عنه شيئاً.. فقد اتفق أهالي أطفال الميدان معه على توصيل أبنائهم إلى المدرسة.. ولم أتمالك نفسي فسألته:

- من أين جئت بهذا الشريط يا أخي..؟

نظر إلي باسماً ومد يده إلى المسجل فأخرج الشريط وقدمه إلي

ببساطة:

- تفضلي.. هو لك..

- كم ثمنه..؟

- أبداً.. هو لك..

تناولت الشريط منه بشيء من الحرج وبكثير من الامتنان: - جزاك الله خيراً.

قال: - منذ الغد سيتولى نقل الأطفال رجل غيري حيث أنني مسافر. وقد اتفقت مع الأهالي على ذلك وعرّفتهم بالسائق الجديد.

قلت: - شيء مؤسف حقاً.. وهل نجد رجلاً طيباً مثلك؟

ابتسم وقال: - كل الناس خير وبركة.. والسائق الجديد أفضل مني..

نزل بعض الأطفال.. وصعد من الرَوضة بعض الأطفال إلى الباص.. وأنا واقفة على الرصيف أتأمل السائق والأطفال.. بكثير من الحيرة والذهول..

رفع يده محيياً وابتسم قائلاً ببساطة: - السلام عليكم.. سامحونا..

وانطلق لا يلوي على شيء.. حتى غاب عن ناظري.. وأنا لا أعرف عنه شيئاً.. وحتى اسمه..!! لكنه كان في عمر ابني على ما

يـــبدو.. ولعـــلي تخيلـــت فيه ابني المسافر بروحه اللطيفة ودماثته الاجتماعية المحببة.. حفظكم الله ورد غربتكم جميعاً..

ما أروع الأمة حين تلد من أمثال هذا الشاب..

وما أبدع شهريار حين يشفى من مرضه وعقده..

شتاء ١٩٩٧م

كلمة أخيرة..

اسمح لي بها أيها القارئ العزيز..

فـإنني مـا أردت إغضابك.. واللوحات الأربع عشرة التي عرضتها عليك كلها من صميم الواقع الذي نعيشه..

إنهـا باقة من دوحة الشوك التي نعيش فيها والتي طالما أدمت قلوبنا.. أنا لم أسجل هذه اللقطات للتنديد والتشهير..

لكـنها محاولة لعرض الحالة.. فلعل أطباء الأمة ينتبهون.. إن كان لأمتنا أطباء في هذا الزمان..

إني لا أريد النجاة والشفاء لشهرزاد وحدها..

فالـزوجان في سـقام وعناء.. ولن يسعد أحدهما إلا بشفاء الآخـر.. وكل المعاناة كامنة في أن يتوهم أحدهما أن سعادته في استعباد الآخر.. فمن يسبق في طلب الشفاء؟!..

ومـن يكشـف فشل الحكاية التي دامت أكثر من (ألف ليلة وليلة) بين شهرزاد وشهريار؟!..

رأيت بعض الحالات يتقدم فيها شهريار ويسبق..

ورأيت عينات أخرى تتقدم فيها شهرزاد..

﴿وفي ذلـك فليتنافس المتنافسون﴾.. وطوبى لمن فاز بالقلب السليم المليء بالعافية لأنه سر سعادة الدنيا والآخرة..

عزيزي القارئ.. عزيزتي القارئة:

لابد أن يدرك شهرزاد وشهريار الصباح..

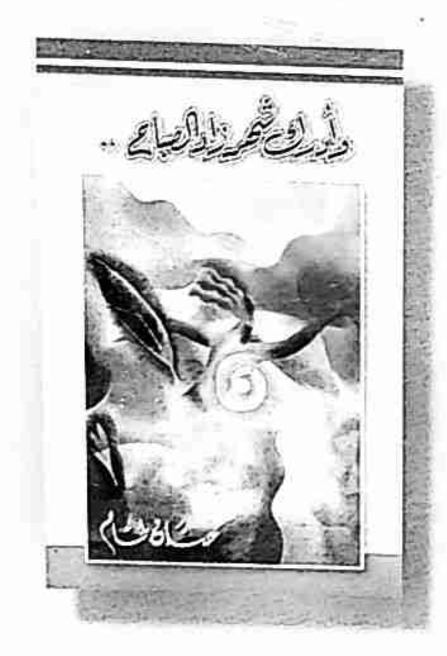
ليتمكنا من الرؤية والتفكير والكلام..

ولا نجاة لنا طالما أننا نسكت عن الكلام المباح..

حنان لحام

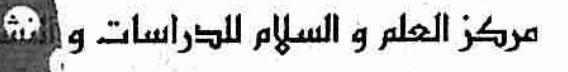
تموز ٢٠٠١م/ جمادى أولى ١٤٢٢هـ

الفهرس



لم أسجل هذه اللقطات
لتنديد و التشهير..
لكنها محاولة لعرض الحالة..
فلعل أطباء الأمة ينتبهون..
إن كان لأمتنا أطباء في
هذا الزمان..
إني لا أريد النجاة و الشفاء
لشهرزاد وحدها .. فالزوجان
في سقام و عناء..
و لن يسعد أحدهما إلا
بشفاء الآخر..
و كل المعاناة كامنة في أن
يتوهم أحدهما أن سعادته
في استبعاد الآخر..
فمن يسبق في طلب الشفاء ؟!..
و من يكشف فشل الحكاية
التي دامت أكثر من (ألف
ليلة و ليلة)
بين شهرزاد و شهريار ؟!..

المؤلفة


مركز العلم و السلام للدراسات و النشر